من تراث الغزالى

الدرة الفاخرة
فى
كشف علوم الآخرة

لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى

المتوفى ٥٠٥ هـ

تقديم وتحقيق وتعليق

صفوت جوده أحمد

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م



بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات القرآنية

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] .

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٢ - ٤٣] .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣]

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩] .

صدق الله العظيم

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

حقوق الطبع والنشر والتوزيع

مكتبة القاهرة

علي يوسف سليمان

الرئيسي ١٢ ش الصنادقية - الأزهر

الفرع ١١ دب الاتراك خلف الجامع الأزهر

ت : ٥٩٠٥٩٠٩ - ص ب ٩٤٦ العتبة

القاهرة

جمهورية مصر العربية

إهداء

إلى روح شيخنا الجليل

إمام دعاة الجيل وشيخ المصلحين

محمد متولى الشعراوى

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

تنبيه

● أخرج البيهقى عن سعيد بن المسيب قال: دخلنا مقابر المدينة مع على رضى الله عنه فنادى: يا أهل القبور ... السلام عليكم ورحمة الله، تخبرونا بأخباركم أم نخبركم؟

قال: فسمعنا صوتا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أمير المؤمنين، خبرنا عما كان بعدنا.

فقال على: أما زواجكم فقد تزوجت، وأما أموالكم فقد اقتسمت، والأولاد قد حشروا فى زمرة اليتامى، والبناء الذى شيدتم. فقد سكنه أعداؤكم، فهذه أخبار ما عندنا فما أخبار ما عندكم؟

فأجابه ميت: قد تخرقت الأكفان وانتشرت الشعور، وتقطعت الجلود، وسالت الأحداق على الخدود، وسالت المناخر بالقيح والصديد، وما قدمناه وجدناه، وما خلفناه خسرناه، ونحن مرتهنون ...

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد :

الحياة البرزخية هى حياتنا الثالثة : حياة محجبة عنا وما أكثر ما حجب عنا وما خفى علينا، فقبل هذه الحياة التى نعيشها ونحياها عشنا حياة أولى فى ضمير الغيب لم نعرف عنها شيئا ولا نستطيع - مهما بلغنا علما وفكر - ان نعرف ولو شيئاً يسيراً منها، إلا ما أخبرنا به الحق تبارك وتعالى عندما قال: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ [الاعراف: ١٧٢].

والبرزخ طريق موصل بين الاولى والآخرة وحياة ثانية تتوسط بين حياتين: حياة دنيوية تبدأ بالولادة وتنتهى بالوفاة وحياة أخروية تبدأ بالنفخ والبعث والنشور تنتهى بالحساب والثواب وبالنعيم أو بالعذاب.

وتبدأ حياة البرزخ من لحظة الوفاة إلى وقت النفخة الأولى حيث يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون، هذه الحياة البرزخية ليست ومضة عابرة أو فترة قصيرة بل هى حياة بكل ما تحمله كلمة حياة من معانى وأجواء.

قال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة وأهله ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم، لا هم فى الدنيا ولا هم فى الآخرة فهم مقيمون فى حياتهم البرزخية إلى يوم يبعثون.

وحياة البرزخ ليست امتداداً لحياة الدنيا فهى مغايرة لها وليست على شاكلتها وإلا كان الانتقال إليها بالموت عبثًا وتكراراً. فضلاً عن ان الواضح يؤيد تلك المغايرة. فما رجع أحد من الحياة البرزخية إلى دنيانا حتى يكون شاهد صدق على أنها امتداد دنيوى.

وهى أيضاً ليست الحياة الأخروية لأن الحياة الأخروية لها ميقات وأشراط وعلامات ما زالت فى علم العليم الحكيم ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

فالحياة البرزخية بين حياتين: حياة تحلل فيها الميت من عتمة وظلامة وطنيته ودخل منطقة الروح والحق والنور فرأى فيها ما حجب عنه فى دنياه وأبصر ما غطى عليه، وعلم فيها ومنها ما كان وما سيكون ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

ورأى منها مكانه فى العالم الأخروى ومكانته يوم القيامة.

لقول رسول الله ﷺ «ما من عبد ينزل فى قبره إلا ويعرف مكانه فى الآخرة أشقى أم سعيد».

جاء فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول فى هذا الرجل أى محمد ﷺ. فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال: فيراهما جميعا يعنى المقعدين. أما المنافق أو الكافر فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول لا أدرى: كنت أقول ما يقوله الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت ويضرب بمطراق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعه من يليه من غير الثقلين.

وفى الحياة البرزخية صدِّيقون وشهداء أحياء فى قبورهم وفيها جاحدون كافرون معذبون فى رمسهم. وفيها رسل الله من ملائكة وأنبياء يعيشون فى أجوائها يسمعون ويرون ويحسون ويشعرون، والرسول محمد ﷺ فى برزخه حى حياة لا يعلم كنهها إلا الله، حياة كحياة هؤلاء الشهداء الذين قال الله فيهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

ويقول الإمام القشيرى: فأخبر سبحانه أن الشهداء أحياء عند ربهم، فالأنبياء أولى بذلك لتقاصر رتبة الكافة عن درجة النبوة. قال الله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [النساء:٦٩].

فرتبة الشهادة ثالث درجة النبوة. وقد وردت الاخبار الصحيحة والآثار المروية بما يدل على هذا، ثم أورد الإمام القشيرى جملة من الاحاديث يثبت بها ما رآه منها عن عبد الله ابن مسعود عن النبى ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوننى عن أمتى السلام».

يقول الإمام القشيرى تعليقا على هذا الحديث «ولا يبلغ السلام إلا من يكون حيًا».

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ صلى علىَّ عند قبرى سمعته، ومن صلى علىَّ نائيا أبلغته».

إن حياة البرزخ من الأمور الغيبية وهو ما يعبر عنه بالسمعيات وهى محك الإيمان، فمن يؤمن بما غاب عنه إيمانا مطلقا عميقا، فإنه أقوى من غير شك من هذا الذى لا يؤمن إلا بالمعاينة والمشاهدة.

وكان لابد للمذنب من جزاء وللمخطئ من عقاب يتفاوت حسب جرم الجرم وعظم الخطيئة وحجم العابث فكان هناك العقاب أو العتاب أو الزجر أو التعزير أو التأنيب.

ومن أجل ذلك كانت ضغطة القبر، وهى: التقاء جانبيه على جسد الميت.

قال الحكيم الترمذى: «سبب هذه الضغطة انه ما من أحد إلا وقد الَمَّ بخطيئة ما، حتى وإن كان صالحا فجعلت لهم هذه الضغطة جزاء لها، ثم تدركه الرحمة، أما الأنبياء فلا نعلم أن لهم فى القبور ضمة ولا سؤالا، وذلك لعصمتهم.

ويعلل الإمام «محمد التيمى» ضمة القبر فيقول: «إنما أصلها أن الأرض أمهم، ومنها خلقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة، فلما ردوا إليها، وهم أولادها، ضمتهم ضمة الوالدة إذا غاب عنها ولدها، ثم قدم فمن كان مطيعا ضمته برأفة ورفق ومن كان عاصيا ضمته بعنف سخطا لربها عليه».

وروى البيهقى، عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت يا رسول الله، إنك منذ حدثتنى بصوت منكر ونكير فضغطة القبر فليس ينفعنى شىء..!! فقال: يا عائشة إن

أصوات منكر ونكير فى أسماع المؤمنين كإثمد[١] فى عين، وإن ضغطة القبر على المؤمن كالأم الشفيقة يشكو ابنها الصداع فتغمز رأسه غمزا رقيقا، ولكن يا عائشة ويل للشاكين فى الله كيف يضغطون فى قبورهم كضغطة الصخرة على البيضة.

وقال أبوالقاسم السعدى فى كتابه «الروح»: «والفرق بين المسلم والكافر فى ضمة القبر، دوامها للكافر، وحصولها للمؤمن فى أول نزوله إلى القبر، ثم يعود إلى الانفساح له، ولا ينجو من ضغطة القبر صالح ولا طالح، إلا من استثناه النبى ﷺ، ومن هؤلاء فاطمة، بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف وأم «على بن أبى طالب» رضى الله عنه، وذلك لأنها حمت المصطفى ﷺ. ولما ماتت فى المدينة سكب عليها الماء الذى فيه الكافور وألبسها قميصه، واضجعها فى قبرها، وقال: الحمد لله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت، اللهم اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها.

وعن حذيفة رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة، فلما انتهينا إلى القبر قعد على شفيره، فجعل يردد بصره فيه، ثم قال: يضغط فيه المؤمن ضغطة تزول منها خمائله[٢].

وقالت عائشة رضى الله عنها: «إن للقبر ضغطة لو كان أحد منها ناجيا لنجا منها سعد بن معاذ».

قال مجاهد: «أشد حديث سمعناه، عن النبى ﷺ: «ما عفى أحد من ضغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد، فقيل يا رسول الله: ولا القاسم ابنك؟ قال: ولا إبراهيم».

فلا جرم أن اتجه علماء المسلمين إلى أن يكون الروح والبدن معا هما مصب الثواب والعقاب فى الحياة البرزخية، وأن التنعم والتعذيب يشملان الروح والجسد معاً كما كانا فى الحياة الدنيوية يأثمان معا أو ينعمان معا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن العذاب والنعيم فى القبر على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب

---

(١) الإثمد: الكحل.

(٢) الخمائل: يراد بها هنا -كما جاء فى كتاب النهاية لابن الأثير- عروق الأنثيين، ويصح أن يراد بها أيضا موضع خمائل السيف أى عاتق الميت وأضلاعه وصدره.

متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما فى هذه الحالة مجتمعين، كما يكون على الروح منفردة عن البدن ».

ولابن حزم الأندلسى قولة مشهورة سجلها فى كتابه « الملل والنحل » قال فيها: « إن من ظن أن الميت يحيا فى قبره قبل يوم القيامة فقد أخطأ ».

وقد علق الإمام ابن القيم على ذلك بقوله: « إن أراد ابن حزم بقوله « من ظن » أن الميت يحيا فى قبره فقد أخطأ » إن أراد الحياة المعهودة فى الدنيا التى تقوم فيها الروح بالبدن وتصرفه وتدبره، ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ كما قال، والحس والعقل يكذبه، كما يكذبه النص.

إن كتاب العلامة « السفارينى » يحدثنا عن تجارب قديمة قام بها بعض الملاحدة والمنكرين للروح ولعالم الروح ولما بعد الروح، أنكرت الملاحدة والزنادقة عذاب القبر وسعته وضيقه وكونه حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، وأنكروا جلوس الميت فى قبره.

قالوا وقد وضعوا على صدر الميت زئبقا، فكشفوا عنه فوجدوه بحاله ولم يجدوا فيه ملائكة يضربون الموتى بمطارق من حديد ولا وجدوا حيات ولا عقارب ولا نيران!

حكمت سنة رسولنا ﷺ بأن الأموات فى عالم البرزخ يسمعون ويعلمون بقول رسول الله ﷺ فى شأن أهل بدر « والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم إلا أنهم لا يجيبون، فإذا كان هناك سمع وعلم فهناك أيضا محادثات وأسئلة وإجابات فى دنياهم ».

إن ماهية هذه اللغة التى تتم بها المساءلة فى القبر مازالت محجبة علينا وإن أصولها وكيفيتها مازالت، وستزال بعيدة عن إدراكنا.

وستظل هكذا عن عمرنا فيما قضيناه، وعن شبابنا فيما أفنيناه وعن مالنا فيما أنفقناه، وعند الحق سبحانه وتعالى تظهر لنا الحقيقة وتبدو الحقائق.

* * *

التعريف بالإمام الغزالى
مؤلف كتاب الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة
المولود: ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م
المتوفى: ٥٠٥ هـ - ١١١١ م

مولده وأخبار نشأته:

هو أبو حامد: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى، كان والده رضى الله عنه، يغزل الصوف ويبيعه فى دكانه بطوس، فلما حضرته الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير، وقال:

إن لى لتأسفا عظيما على تعلم الخط .٠. واشتهى استدراك ما فاتنى فىولدىّ هذين.

ونفذ الوصى الصالح ما أوصى به صاحبه فعلمهما الخط وأدبهما حتى فنى ذلك المال الذى خلفه لهما أبوهما، وتعذر على ذلك الصوفى القيام بقوتهما فقال لهما: اعلما أنى قد انفقت عليكما ما كان لكما وانا رجل من اهل التجريد، بحيث لا مال لى فاواسيكما به، واصلح ما ارى لكما ان تلجا إلى مدرسة فإنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما، ففعلا ذلك، وكان هو السبب فى سعادتهما، وعلو درجتهما، وكان الغزالى رضى الله عنه يحكى هذا ويقول: (**طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله**).

شيوخه:

قرأ فى صباه طرفا من الفقه ببلدة طوس على احمد بن محمد الذاذاكانى ثم سافر فى طلب العلم إلى جرجان لاستماع دروس الإمام ابى نصر الإسماعيلى وعلق عليه التعليقة ثم رجع إلى طوس واقبل على الاشتغال بهذه التعليقة ثلاث سنين حتى حفظها ثم سافر إلى نيسابور وتردد على دروس إمام الحرمين ابى المعالى الجوينى.

نبوغه ومكانته العلمية:

جد واجتهد فى الاشتغال والاستذكار، والاستظهار، حتى برع فى الفقه والخلاف

والجدل وأصول الدين وأصول الفقه والمنطق والحكمة والفلسفة ونبغ فى مدة وجيزة حتى صار يشار إليه بالبنان، وصنف فى تلك العلوم على عهد أستاذه إمام الحرمين ونقد الآراء الزائفة فى هذه العلوم وتصدى للرد عليها.

طلبه للعلم ورحلاته:

لما مات إمام المحدثين خرج الغزالى من نيسابور إلى المعسكر قاصدا الوزير نظام الملك الذى كان مجلسه مجتمع أهل العلم وملاذ الأدباء، فناظر الغزالى فى حضرته الأئمة العلماء وظهر عليهم، فاعترفوا بفضله وتلقاه نظام الملك بالتعظيم والتكريم وولاه تدريس مدرسته بغداد وأمره بالتوجه إليها فقدم بغداد سنة ٤٨٤هـ بالنظامية فاعجب الناس بحسن كلامه وفصاحة لسانه وسمو خلقه فاحبوه من قلوبهم واقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير ومكث مدة يدرس وينشر العلم والفتيا، عالى التربية، مسموع الكلمة مشهور الاسم، تضرب به الأمثال وتشهد إليه الرجال ثم زهد فى تلك المظاهر فقصد إلى بيت الله الحرام للحج سنة ٤٨٨هـ واستناب أخاه فى التدريس. فلما رجع توجه إلى الشام فأقام بمدينة دمشق يشتغل بالعلم فى زاوية الجامع ثم انتقل إلى بيت المقدس واجتهد فى العبادة وانقطع عن الناس وتحرى الأماكن الخالية، ثم قصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة وكان قد اعتزم السفر فيها إلى بلاد المغرب بحرا للاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش ولكنه عدل عن ذلك حين بلغه نعيه، فعاد إلى وطنه طوس، واشتغل بالعلم والعبادة، وتصنيف الكتب المفيدة.

وذكر الشيخ علاء الدين على بن الصيرفى فى كتابه «زاد السالكين» أن القاضى أبا بكر بن العربى قال: رأيت الإمام الغزالى فى البرية وبيده عكازه وعليه مرقعه، وعلى عاتقه ركوة وقد كنت رأيته ببغداد يحضر مجلس درسه نحو أربعمائة عمامة من أكابر الناس، وأفاضلهم يأخذون عنه العلم. قال: فدنوت منه وسلمت عليه، وقلت له يا إمام: أليس تدريس العلم ببغداد خير من هذا؟ قال: فنظر إلىّ شزراً وقال: **(لما طلع بدر السعادة فى فلك الإرادة وجنحن شمس الوصول فى مغارب الأصول)**.

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل	وعدت إلى تصحيح أول منزل
ونادت بى الأشواق مهلا هذه	منازل من تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلا دقيقا فلم أجد	لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

ثناء الأكابر عليه من مشايخه ومن عاصره وممن أتى بعده:

قال السبكي في جواب كتاب أبي العفيف المطري وقد سأله عن الغزالي ما نصه: «وماذا يقول الإنسان وفضله واسمه قد طبق الأرض، ومن خبر كلامه عرف أنه فوق اسمه»؟!

وقال محمد بن يحيى النيسابوري تلميذ الغزالي: «لا يعرف الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد أن يبلغ الكمال في عقله».

من كراماته:

كثرت كرامات الإمام الغزالي وزاع صيتها، وانتشرت سمعتها وتردد على ألسنة العارفين ذكرها. قال أبوعبدالله محمد بن يحيى ابن عبدالمنعم العبدري المؤذن: رأيت بالإسكندرية سنة خمسمائة في إحدى عشرة من المحرم فيما يرى النائم كان الشمس طلعت من مغربها فعبر ذلك بعض المعبرين ببدعة تحدث فيهم، فبعد أيام وصلت المراكب بإحراق كتب الغزالي بالبرية.

الباحثون عن الحقيقة في نظر الغزالي:

بحث الغزالي عن جميع الفرق في عصره التي تنشد الحقيقة فوجدها أربع فرق:

١ – **المتكلمون**: الذين يدعون أنهم أهل الرأى والنظر.

٢ – **الباطنية**: الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣ – **الفلاسفة**: وهم الذين يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤ – **الصوفية**: وهم الذين يزعمون أنهم خواص الحضرة وأهل المكاشفة والمشاهدة.

فقلت في نفسي: الحق لا تعدو هذه الأصناف الأربعة فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق فإن شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته إذ من شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد فإذ علم ذلك انكسرت زجاجة تقلده وهو أشعب لا يراب وشعث لا يلم بالتلفيق والتأليف إلا أن يذب بالنار.

فانبدرت لسلوك هذه الطريق واستقصاء ما عنده هذه الفرق مبتدئا بعلم الكلام ومثنيا بطريق الفلسفة ومثلثا بتعليم الباطنة ومربعا بطريق الصوفية.

مصنفاته:

شملت أكثر فروع العلوم والمعرفة فى عصره مثل الفقه والأصول والأخلاق والتصوف والفلسفة والمنطق، وكان رحمه الله شديد الذكاء، سديد النظر ، سليم الفطرة، عجيب الإدراك، قوى الحافظة، مرهف الأحاسيس، بعيد الغور، غواصا على المعانى الدقيقة، معنيا بالإشارات الرقيقة، جامعا بين علوم الظاهر والحقيقة، مناظرا محجاجا، وغيثا ثجاجا، ونعرض لأهم مصنفاته بإيجاز كما يلى:

(أ) كتب العقائد:

١ - الاقتصاد فى الاعتقاد.

٢ - قواعد العقائد.

٣ - عقيدة أهل السنة .

٤ - إلجام العوام فى علم الكلام

٥ - الرسالة القدسية فى قواعد العقائد.

٦ - فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

٧ - فضائح الباطنية.

٨ - القسطاس المستقيم.

٩ - كيمياء السعادة.

١٠ - المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى.

١١ - فضائل القرآن وغيرها.

(ب) كتب الفقه والأصول ومنها:

١ - أسرار الحج فى الفقه الشافعى.

٢ - الوسيط المحيط بأقطار البسيط.

٣ - البسيط فى الفروع.

٤ - المنخول فى الأصول.

٥ - غاية الغور فى مسائل الدور.

٦ - الوجيز فى الفروع.

٧ - المستصفى فى علم الأصول.

(جـ) كتب الفلسفة والمنطق ومنها :

١ - المنقذ من الضلال.

٢ - معارج القدس فى مدارج معرفة النفس.

٣ - حقائق العلوم لأهل المفهوم.

٤ - تهافت الفلاسفة.

٥ - محك النظر فى المنطق.

٦ - معيار العلم فى المنطق.

٧ - كتاب المنتحل فى علم الجدل.

٨ - رسالة الطير.

٩ - المعارف العقلية والحكم الإلهية.

(د) كتب الأخلاق والتصوف منها :

١ - إحياء علوم الدين.

٢ - آداب الصوفية.

٣ - الرسالة اللدنية.

٤ - منهاج العابدين.

٥ - فاتحة العلوم.

٦ - معراج السالكين.

٧ - ميزان العمل.

٨ - الأدب فى الدين.

٩ - رسالة أيها الولد.

١٠ - جواهر القرآن ودرره.

١١ - بداية الهداية وتهذيب النفس بالآداب الشرعية.

١٢ - الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة «الذى بين أيدينا الآن».

١٣ - مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوم.

١٤ - التبر المسبوك فى نصيحة الملوك.

١٥ - الحكمة فى مخلوقات الله.

١٦ - نفخ الروح والتسوية.

١٧ - الذهب الإبريز فى أسرار خواص كتاب الله العزيز.

انتقاله إلى دار الآخرة:

فى كتاب (الثبات عند الممات) لابن الجوزى قال احمد اخو الغزالى: «ما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ اخى وصلى وقال علىّ بالكفن فاخذه وقبله ووضعه على جبينه، وقال: «سمعًا وطاعة للدخول على الملك.. ثم مد رجليه واستقبل القبلة فانتقل إلى رضوان الله تعالى قبل الأسفار. طيب الثناء أعلى منزلة من نجم السماء، لا يكرهه إلا حاسد أو زنديق ولا يسومه بالسوء إلا من كان فى قلبه ريب أو حاد عن سواء الطريق».

وقال عنه فخر الدين ابن عساكر رضى الله عنه: مضى إلى رجمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة، سنة خمس وخمسمائة ودفن بظاهر قصبة طابران، والله يخصه بأنواع الكرامة فى أخراه، كما خصه بفنون العلم فى دنياه بمنه[1].

* * *

---

(١) وفيات الأعيان (١/٤٦٣) - طبقات الشافعية (٤/١٠١) شذرات الذهب (٤/١٠) الوافى بالوفيات (١/٢٧٧) - مفتاح السعادة (٢/١٩١ ٢١٠) تبين كذب المفترى (٢٩١/٣٠٦) - معجم المطبوعات (١٤٠٨ - ١٤١٦) آداب اللغة (٣/٩٧) - الفهرس التمهيدى (١٦٤).



الـدرة الفـاخرة
فى
كشف علوم الآخرة

لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى

المتوفى ٥٠٥ هـ

تقديم وتحقيق وتعليق

الأستاذ صفوت جوده أحمد

النـاشـر

مكتبة القاهرة

١٢ ش الصنادقية بالأزهر - ص . ب ٩٤٦ العتبة

القاهرة - ت: ٥٩٠٥٩٠٩



مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى خص نفسه بالدوام، وحكم على من سواه بالانصرام، وجعل الموت حال أهل الكفر والإسلام، وفصل بعلمه بين تفاصيل الأحكام وجعل حكم الآخرة خلفا للمعهود من الأيام وأنهج ذلك لمن يشاء من خلقه أهل الإكرام.

وصلى الله على سيدنا محمد رسول الملك العلام، وعلى آله وصحبه الذين خصهم بجزيل الإنعام فى دار السلام.

المؤلف

الموتات الثلاث للعالمين

قال الله تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾، وثبت ذلك فى كتابه العزيز فى ثلاثة مواضع(١)، وإنما أراد الله سبحانه وتعالى الموتات الثلاث للعالمين.

فالمتحيز إلى العالم الدنيوى يموت والمتحيز إلى العالم الملكوتى يموت والمتحيز إلى العالم الجبروتى يموت.

فالأول آدم وذريته وجميع الحيوانات على ضروبه الثلاث، والملكوتى وهو الثانى اصناف الملائكة والجن، اما أهل الجبروتى فهم المصطفون من الملائكة. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

فهم كروبيون وروحانيون وحملة العرش وأصحاب سرادقات الجلال الذين وصفهم الله تعالى فى كتابه واثنى عليهم حيث يقول: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ⑲ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]

وهم أهل حظيرة القدس المعنيون المنعوتون بقول الله تعالى: ﴿لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧].

وهم يموتون على هذه المكانة من الله تعالى والقربى وليس زلفاهم بمانعة لهم من الموت، فاول ما اذكر عن الموت الدنيوى فالق اذنيك لتعى ما أورده وأصفه لك بنقل عن الانتقال من حال إلى حال إن كنت مصدقا بالله ورسوله واليوم الآخر فإنى ما آتيك إلا ببينة، شهد الله على ما اقول ويصدق مقالتى القرآن وما صح من حديث رسول الله ﷺ.

---

(١) فى سورة آل عمران (٣) قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].
وفى سورة الانبياء: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الانبياء: ٣٥].
وفى سورة العنكبوت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

أمثال الذر من المسح على ظهر آدم

لما قبض الله القبضتين اللتين قبضهما عندما مسح على ظهر آدم عليه السلام فكل ما جمعه فى جمعه الأول إنما جمع من شقه الأيمن وكل ما جمع فى الآخر إنما جمع من شقة الأيسر ثم بسط قبضته سبحانه فنظر إليهم – وهم أمثال الذر – ثم قال هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى،فهم بعمل أهل الجنة يعملون فقال آدم عليه السلام يا رب وما عمل أهل النار قال الشرك بى وتكذيب رسلى وعصيان كتابى فى الامر والنهى. قال آدم عليه السلام أشهدهم على انفسهم: عسى ان لا يفعلوا فأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا وأشهد عليكم الملائكة وآدم أنهم أقروا بربوبيته ثم ردهم إلى مكانهم وإنما كانوا أحياء نفسا من غير أجسام، فلما ردهم إلى صلب آدم عليه السلام أماتهم وقبض أرواحهم وجعلها عنده فى خزانة من خزائن العرش فإذا سقطت النقطة المتعوسة أقرت فى الرحمن حتى تمت صورتها والنفس فيها ميتة فلجوهرها الملكوتى منعت الجسد من النتن، فإذا نفخ الله تعالى فيها الروح رد إليها سرها المقبوض منها الذى خبأه زمانا فى خزانة العرش فاضطرب المولود. فكم من مولود دب فى بطن أمه فربما سمعته الوالدة أو لم تسمعه فهذه موتة أولى وحياة ثانية.

* * *

الموتة الدنيوية

ثم إن الله عز وجل اقامه فى الدنيا أيام حياته حتى استوفى أجله المحدود ورزقه المقدور وآثاره المكتوبة فإذا دنت موتته وهى الموتة الدنيوية فحينئذ نزل عليه أربعة من الملائكة: ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى وملك يجذبها من قدمه اليسرى وملك يجذبها من يده اليمنى وملك يجذبها من يده اليسرى، وربما كشف للميت عن الأمر الملكوتى قبل أن يغرغر فيعاين الملائكة على حقيقة عمله على ما يتحيزون إليه من عالمهم فإن كان لسانه منطلقا تحدث بوجودهم فربما أعاد على نفسه الحديث بما رأى، وظن أن ذلك من فعل الشيطان فسكن حتى يعقل لسانه وهم يجذبونها من أطراف البنان ورؤوس الأصابع، والنفس تنسل انسلال القذاة من السقاء، والفاجر تسل وجهه كالسفود من الصوف المبلول. هكذا حكى صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام.

والميت يظن أن بطنه ملئت شوكا كأنما نفسه تخرج من خرم إبرة وكأنما السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما ولهذا سئل كعب رضى الله عنه عن الموت فقال كغصن شوك دخل فى جوف رجل فجذبه إنسان ذو قوة فقطع ما قطع وأبقى ما أبقى.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لسكرة من سكرات الموت أشد من ثلاثمائة ضربة بالسيف، فعندها يرشح جسده عرقا وتزور عيناه وتمتد رئتيه، وترتفع أضلاعه وتعلو نفسه ويصفر لونه»(١).

---

(١) اخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن عائشة رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الموت «اللهم هون علىّ سكرات الموت».

يقول صاحب كتاب التذكرة: وما جرى على الانبياء صلوات الله عليهم اجمعين من شدائد الموت وسكراته فله فائدتان إحداهما: ان يعرف الخلق مقدار الم الموت وانه باطن، وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة ولا قلقا ويرى سهولة خروج روحه، فيغلب على ظنه سهولة امر الموت ولا يعرف ما الميت فيه. فلما ذكر الأنبياء الصادقون فى خبرهم شدة المه مع كرامتهم على الله تعالى وتهوينه على بعضهم قطع الخلق شدة الموت الذى يعانيه ويقاسيه الميت، مطلقا لإخبار الصادقين عنه ما خلا الشهيد قتيل الكفار.

الثانية: ربما خطر لبعض الناس ان هؤلاء احباب الله، وانبياؤه ورسله فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة؟ وهو سبحانه قادر ان يخفف عنهم اجمعين كما قال فى قصة إبراهيم: اما إنا قد هونا عليك»

فالجواب: «ان اشد الناس بلاء فى الدنيا الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل». =

ولما عاينت عائشة[١] رسول الله ﷺ فى هذه الحالة وهو مستلق فى حجرها وهى تكفكف الدمع جعلت تقول شعرا:

بنفسى أفدى ما غصك ... من الهايعات وما توجع
وما مسك الجن من قبل ذا ... وما كنت ذا روعة تفزع
ومالى أنظر فى وجهك ... كمثل الصباغ إذا ينقع
إذا شحب اللون من ميت ... فأنوار وجهك قد تسطع

فإذا احتضرت نفسه إلى القلب خرس لسانه عن النطق وما أحد ينطق والنفس مجموعة فى صدره لوجهين.

أحدهما أن الأمر عظيم قد ضاق صدره بالنفس المجتمعة فيه. الا ترى ان الإنسان إذا أصابته ضربة فى صدره بقى مدهوشا فتارة يتكلم وتارة لا يقدر على الكلام وكل مطعون يطعن بسوط إلا مطعون الصدر فإنه يخر ميتا من غير تصويت؟!

وأما الآخر فإن السر الذى فيه حركة الصوت المندفعة من الحرارة الغريزية قد ذهب فصار نفسه متغير الحالتين، حال الارتفاع والبرودة لانه فقد الحرارة. فعند هذا الحال تختلف أحوال الموتى فمنهم من يطعنه الملك حينئذ بحربة مسمومة قد سقيت سما من نار فتفر النفس وتفيض خارجة فيأخذها فى يده ترعد أشبه شيء بالزئبق على قدر النحلة شخصا إنسانيا ثم الملائكة تناولها الزبانية، ومن الموتى من تحذف نفسه رويدا حتى تنحصر فى الحنجرة وليس يبقى فى الحنجرة إلا شعبة متصلة بالقلب فحينئذ يطعنها بتلك الحربة الموصوفة فإن النفس لا تفارق القلب حتى يطعن وسر تلك الحربة أنها تغمس فى بحر الموت فإذا وضعت على القلب صار سرها فى سائر الجسد كالسم الناقع لان سر

= كما قال نبينا عليه السلام. خرجه البخارى وغيره فاحب الله ان يبتليهم تكميلا لفضائلهم لديه ورفعة لدرجاتهم عنده وليس ذلك فى حقهم نقصا ولا عذابا بل هو كما قال كمال رفعة مع رضاهم بجميل ما يجرى الله عليهم فاراد الحق سبحانه أن يختم بهذه الشدائد مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم ليرفع منازلهم ويعظم اجورهم قبل موتهم.

(١) هى أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق تزوجها النبى ﷺ بمكة وهى بنت ست سنين. كانت من اكثر الصحابة رواية للحديث. روى لها عن الرسول ﷺ ٢٢١٠ احاديث توفى عنها الرسول ﷺ وهى بنت ثمانى عشرة سنة وتوفيت سنة ٥٨ هـ رضوان الله عليها.

الحياة إنما هو موضوع فى القلب ويؤثر سره فيه عند النشأة الأولى.. وقد قال بعض المتكلمين: الحياة غير النفس ومعناها اختلاط النفس بالجسد، وعند استقرار النفس فى الترقى والارتفاع يعرض عليه الفتن وذلك أن إبليس قد أنفذ أعوانه إلى هذا الإنسان خاصة واستعملهم عليه ووكلهم به فيأتون المرء وهو فى تلك الحال فيتمثلون له فى صورة من سلف من الأحياء الميتين الباغين له النصح فى دار الدنيا كالأب والأم والأخ والأخت والصديق الحميم. فيقول له أنت تموت يا فلان ونحن قد سبقناك فى هذا الشأن فمت يهوديا فهو الدين المقبول عند الله تعالى، فإن انصرفوا عنه وأبى جاءه آخرون وقالوا له مت نصرانيا فإنه دين المسيح ونسخ به دين موسى ويذكرون له عقائد كل ملة فعند ذلك يزيغ الله من يريد زيغه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] أى لا تزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل هذا إلى الإيمان، فإذا أراد الله تعالى بعبده هداية وتثبيتا جاءته الرحمة، وقيل هو جبريل عليه السلام فطرد عنه الشيطان ويمسح الشحوب عن وجهه فيبتسم الميت ضاحكا لا محالة، وكثير من يُرى مبتسما فى هذه الحالة فرحا مسرورا بالبشير الذى جاء رحمة من الله تعالى يقول يا فلان ما تعرفنى أنا جبريل وهؤلاء أعداؤك من الشياطين مت على الملة الحنيفية والشريعة المحمدية، فما شىء أحب إلى الإنسان وأفرح منه بذلك الملك وهو قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ثم عند الفطرة، ومن الناس من يطعن وهو قائم يصلى أو نائم أو مار فى بعض أشغاله ومنعكف على اللهو وهو البغتة فتقبض نفسه مرة واحدة، ومن الناس من إذا بلغت نفسه الحلقوم كشف له عن أهله السابقين واحدق به جيرانه من الموتى وحينئذ يكون له خوار يسمعه كل شىء إلا الإنسان ولو سمعه لصعق، وآخر ما يفقد من الميت السمع لأن الروح إذا فارقت القلب بأسرها فسد البصر وأما السمع فلا يفقد حتى تقبض النفس ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «لقنوا موتاكم شهادة لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»(١).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى. قال علماؤنا: تلقين الموتى هذا الكلمة سنة مأثورة عمل بها المسلمون، وذلك ليكون آخر كلامهم لا إله إلا الله فيختم له بالسعادة، وليدخل فى عموم قوله ﷺ «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن جبل - رضى الله عنه - فإذا تلقنها المحتضر وقالها مرة واحدة فلا تعاد عليه لئلا يضجر، وقد كره أهل العلم =

ونهى عن الإكثار بها عليهم لما يجدونه من الهول الأعظم والكرب الأقصم. فإذا نظرت إلى الميت قد سال لعابه وتقلصت شفتاه واسود وجهه وازرقت عيناه فاعلم بأنه شقى قد كشف له عن حقيقة شقوته فى الآخرة، وإذا رأيت الميت جاف الفم كأنه يضحك منطلق الوجه مكسورة عينه فاعلم أنه بشر بما يلقاه فى الآخرة من السرور وكشف له عن حقيقة كرامته، فإذا قبض الملك النفس السعيدة تناولها ملكان حسان الوجوه عليهما أثواب حسنة ولهما روائح طيبة فيلقونها فى حريرة من حرير الجنة وهى على قدر النحلة شخصا إنسانيا ما فقد من عقله ولا من علمه المكتسب فى دار الدنيا، فيعرجون به فى الهواء منهم من يعرف ومنهم من لا يعرف، فلا تزال تمر بالأمم السالفة والقرون الخالية كأمثال الجراد المنتشر حتى تنتهى إلى سماء الدنيا فيقرع الأمين الباب فيقال للأمين من أنت؟! فيقول أنا صلصيائيل أى جبريل، وهذا فلان معى بأحسن أسمائه وأحبها إليه فيقول له نعم الرجل كان فلان وكانت عقيدته حسنة غير شاك ثم ينتهى إلى السماء الثانية فيقرع الأمين الباب فيقال من أنت؟! فيقول مقالته الأولى فيقال أهلا وسهلا بفلان كان محافظًا على صلاته وجميع فرائضها ثم يمر حتى ينتهى إلى السماء الثالثة فيقرع الأمين الباب فيقال من أنت؟! فيقول الأمين مقالته الأولى والثانية فيقال كان يرعى الله فى حق ماله، ولا يتمسك منه بشىء، ثم يمر حتى ينتهى إلى السماء الرابعة فيقرع الباب فيقال من أنت فيقول كداب فى مقالته فيقال أهلا بفلان كان يصوم فيحسن الصوم ويحفظه من إدراك الرفث وحرام الطعام ثم ينتهى إلى السماء الخامسة فيقرع الباب فيقول كعادته فيقال أهلاً وسهلاً به أدى حجة الله الواجبة عليه من غير سمعة ولا رياء ثم ينتهى إلى السماء السادسة فيقرع الباب فيقال من أنت فيقول

= الإكثار من التلقين والإلحاح عليه، إذا هو تلقنها أو فهم ذلك عنه.

وعن واثلة بن الأسقع عن النبى ﷺ «احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا الله وبشروهم بالجنة فإن الحكيم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع: وإن الشيطان أقرب من ابن آدم عند ذلك المصرع. والذى نفسى بيده لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف. والذى نفسى بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كل عضو منه على حياله».

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حضر ملك الموت رجلا، قال: فنظر فى قلبه فلم يجد فيه شيئا، ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول: لا إله إلا الله فغفر له بكلمة الإخلاص».

الأمين مقالته فيقال مرحبا بفلان كان كثير الاستغفار بالأسحار ويتصدق بالسر ويكفل الأيتام . ثم يفتح له فيمر حتى ينتهى إلى سرادقات الجلال فيقرع الباب فيقول الأمين مثل قوله فيقال أهلاً وسهلاً مرحبا بالعبد الصالح والنفس الطيبة كان كثير الاستغفار وينهى عن المنكر ويامر بالمعروف ويكرم المساكين، ويمر بملأ من الملائكة كلهم يبشرونه بالجنة ويصافحونه حتى ينتهى إلى سدرة المنتهى فيقرع الباب فيقال الأمين كدأبه فى مقالته فيقال أهلا وسهلاً ومرحبا بفلان كان عمله صالحاً لوجه الله تعالى ثم يفتح له فيمر فى بحر من نار ثم يمر فى بحر من نور ثم يمر فى بحر من ظلمة ثم يمر فى بحر من ماء ثم يمر فى بحر من ثلج ثم يمر فى بحر من بَرَد، طول كل بحر منها ألف عام ثم يخترق الحجب المضروبة على عرش الرحمن وهى ثمانون ألفا من السرادقات لكل سرادق ثمانون ألف شرافة على كل شرافة ملك يهلل الله تعالى ويسبحه ويقدسه، لو برز منها قمر واحد إلى سماء الدنيا لعبد من دون الله لأحرقها نوره فحينئذ ينادى منادٍ من الحضرة القدسية من وراء السرادقات : من هذه النفس التى جئتم بها؟! فيقول فلان بن فلان فيقول الجليل جل جلاله قربوه فنعم العبد كنت يا عبدى فإذا أوقفه بين يديه الكريمتين أخجله ببعض اللوم والمعاتبة حتى يظن أنه قد هلك ثم يعفو عنه سبحانه .

كما روى عن يحيى بن أكثم القاضى وقد رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك؟! فقال أوقفنى بين يديه ثم قال يا شيخ السوء فعلت كذا وفعلت كذا، فقلت يا رب ما بهذا حدثت عنك، قال فبماذا حدثت عنى يا يحيى؟! فقلت حدثنى الزهرى عن معمر عن عروة عن عائشة عن النبى ﷺ عن جبريل عنك سبحانك أنك قلت «إنى لأستحى أن أعذب شيبة شابت فى الإسلام»، فقال : «يا يحيى صدقت، وصدق الزهرى وصدق معمر وصدق عروة وصدقت عائشة وصدق محمد وصدق جبريل وقد غفرت لك».

* وعن ابن نباتة وقد رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال أوقفنى بين يديه الكريمتين وقال أنت الذى تلخص كلامك حتى يقال ما أنصحه قلت سبحانك إنى كنت فى الدنيا أصفك . قال قل كما كنت تقول فى دار الدنيا قلت أماتهم الذى خلقهم وأسكتهم الذى انطقهم وسيوجدهم كما أعدمهم وسيجمعهم كما فرقهم قال لى صدقت اذهب قد غفرت لك.

* وعن منصور بن عمار أنه روى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك؟! قال: أوقفنى بين يديه الكريمتين وقال لى بماذا جئتنى يا منصور؟! قلت بست وثلاثين حجة قال لى ما قبلت منها ولا واحدة، ثم قال بماذا جئتنى؟! قلت بثلاثمائة وستين ختمة قرأتها لوجهك الكريم قال ما قبلت منها واحدة ثم قال بماذا جئتنى يا منصور فقلت جئتك برحمتك، قال سبحانه الآن جئتنى اذهب فقد غفرت لك، وكثير من هذه الحكايات تخبر بهذه الأمور وإنما حدثتك شيئا ليقتدى به المقتدى والله المستعان.

* ومن الناس من إذا انتهى إلى الكرسى سمع النداء ردوه فمنهم من يرد من الحجب وإنما يصل إلى الله تعالى عارفوه، ولا يقف بين يديه إلا أهل المقام الرابع.

* * *

موت الفاجر

وأما الفاجر فتؤخذ نفسه عنفا فإذا وجهة كآكل الحنظل والملك يقول اخرجي أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث فإذا له صراخ أعظم ما يكون كصراخ الحمير، فإذا عزرائيل ناولها زبانية قباح الوجوه وسود الثياب منتنى الريح بأيديهم مسوح من شعر فيلفونها فيه فتستحيل شخصا إنسانيا على قدر الجراد، فإن الكافر أعظم جرماً من المؤمن يعنى الجسم فى الآخرة.

* وفى الصحيح «أن ضرس الكافر فى النار مثل جبل أحد»(١).

قال فيعرج به حتى ينتهى إلى سماء الدنيا فيقرع الأمين الباب فيقال من أنت فيقول أنا قيابيل فيقال من معك؟! فيقول فلان ابن فلان بأقبح أسمائه وأبغضها إليه فى دار الدنيا فيقال لا أهلاً ولاسهلاً ولا يفتح له أبواب السماء ولايدخل الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط، فإذا سمع الأمين هذه العبارة طرحه من يده فتهوى به الريح فى مكان سحيق اى بعيد وهو قوله عز وجل ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١] فياله من خزى حل به! فإذا انتهى به إلى الأرض ابتدرته الزبانية وسارت به إلى سجين وهى صخرة عظيمة تأوى إليها أرواح الفجار.

وأما اليهود والنصارى فمردودون من الكرسى إلى قبورهم هذا من مات منهم على شريعته ويشاهد غسله ودفنه.

وأما المشرك فلا يشاهد شيئا من ذلك لانه قد هوى به وأما المنافق فمثل الثانى يرد ممقوتا مطروداً إلى حفرته، وأما المقصرون من المؤمنين فتختلف أنواعهم، فمنهم من ترده صلاته لان العبد إذا نقر فى صلاته سارقا لها تلف كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجهه ثم تعرج وهى تقول ضيعك الله كما ضيعتنى.

ومنهم من ترده زكاته لانه إنما يزكى ليقال فلان متصدق وربما وضعها عند النسوان فاستجلب بها محبتهن ولقد رأيناه عافنا الله مما حل به.

ومن الناس من يرده صومه لانه صام عن الطعام ولم يصم عن الكلام فهو رفث

---

(١) رواه الإمام احمد، ومسلم والترمذى والحاكم والبزار بدون قوله فى النار، وفى بعض الروايات «ضرس الكافر يوم القيامة مثل احد» اى مثل جبل «أحد».

وخسران فخرج الشهر عنه وقد لهوجه[١].

ومن الناس من يرده حجه لانه إنما حج ليقال فلان حج او يكون حج بمال خبيث.

ومن الناس من يرده العقوق وسائر أحوال البر كلها لا يعرفها إلا العلماء بأسرار المعاملات وتخصيص العمل الذى للملك الوهاب. فكل هذه المعانى جاءت بها الآثار والاخبار.

وكالخبر الذى رواه معاذ بن جبل رضى الله عنه فى رد الاعمال وغيرها، وإنما أردت تقريب الأمر ولولا الاختصار لكنت ملات الدواوين من تصحيح ذلك. وأهل الشرع يعرفون صحة ذلك كما يعرفون أبناءهم، فإذا ردت النفس إلى الجسد ووجدته قد أخذ فى غسله إن كان قد غسل فتقعد عند راسه حتى يغسل فيكشف الله عن بصر من يشاء من الصالحين فينظرها على صورتها الدنيوية.

* وقد حدث شخص أنه غسل ابنا له فإذا هو بشخص قاعد عند راسه فادركه الوهم فترك الجهة التى رأى فيها الشخص وتحول إلى الجهة الاخرى فلم يزل ينظره حتى أدرج الميت فى كفنه فعاد إليه ذلك الشخص فشاهده العالم وهو على النعش.

كما روى عن غير واحد من الصالحين أنه نادى ميتا وهو فى النعش أين فلان وأين الروح فانتفض الكفن من تلقاء صدره مرتين أو ثلاثة.

* وعن الربيع بن خيثم أنه اضطرب فى يد غاسله.

وقد علم أن الميت تكلم فى نعشه على عهد الصديق وذكر فضله وفضل الفاروق وإنما هى النفس تشاهد أمراً ملكوتيا، ويكشف الله عن سمع من يشاء، فإذا أدرج الميت فى أكفانه صارت الروح ملتصقة بالصدر خارجة ولها خوار وعجيج وهى تقول أسرعوا بى إلى أى رحمة ربى لو علمتم ما أنتم حاملونى إليه، فإن كان يبشر بالشقاء يقول رويداً بى إلى أى عذاب لو تعلمون ما أنتم حاملون إليه. ولاجل ذلك كان رسول الله ﷺ لا تمر به جنازة إلا قام لها.

* وفى الصحيح أنه ﷺ مرت به جنازة فقام لها تعظيماً فقيل يا رسول الله إنه يهودى فقال: «أليست نفسا»؟![٢]. وإنما كان يفعله لانه كشف له عن اسرار الملكوت فكان يسر بالميت إذا مر به لأنه من أهل فهمه ومعانيه.

---

(١) قوله لهوجه: فى القاموس لهوج امره إذا لم يبرمه؛ أى لم يتقنه.

(٢) اخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن ابى ليلى ان قيس بن سعد وسهل بن حنيف كانا بالقادسية، فمرت بهما جنازة، فقاما، فقيل لهما: إنهما من أهل الأرض، فقالا: إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة، فقام فقيل له: إنه يهودى؟ فقال: «أليست نفسا؟» قال الحافظ ابن حجر: قال أكثر الصحابة والتابعين باستحباب القيام، وهو قول احمد، وقال بعض السلف: يجب القيام. ا. هـ.

أول ما يلقى الميت إذا دخل قبره

فإذا دخل الميت القبر وأهيل عليه التراب ناداه القبر: كنت تفرح على ظهرى واليوم تحزن فى بطنى، كنت تأكل الألوان على ظهرى، والآن تأكلك الديدان فى بطنى ويكثر عليه مثل هذه الألفاظ الموبخة حتى يسوى عليه التراب ثم يناديه ملك يقال له رومان.

* وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال يا رسول الله ما أول ما يلقى الميت إذا أدخل قبره؟! قال يا ابن مسعود ما سألنى عنه أحد إلا أنت. فأول ما يناديه ملك اسمه رومان يجوس خلال المقابر فيقول هيهات، كفنك قرطاسك ومدادك (يقك وقلمك اصبعك، فيقطع قطعة من كفنه ثم يجعل العبد يكتب وإن كان غير كاتب فى الدنيا فيكتب حينئذ حسناته وسيئاته كيوم واحد ثم يطوى الملك الرقعة ويعطقها فى عنقه ثم قال رسول الله ﷺ ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]، فإذا فرغ من ذلك دخل عليه فتانا القبر وهما ملكان أسودان يخرقان الأرض بأنيابهما لهما شعور مسدولة يجرانها على الأرض، كلامهما كالرعد القاصف وأعينهما كالبرق الخاطف ونفَسهما كالريح العاصف، وبيد كل واحد منهما مقمع من حديد لو اجتمع عليه الثقلان ما رفعاه، لو ضرب به أعظم جبل لجعله دكًا، فإذا أبصرتهما النفس ارتعدت وولت هاربة فتدخل فى منخر الميت فيحيا الميت من الصدر ويكون كهيئته عند الغرغرة ولا يقدر على حركة غير أنه يسمع وينظر. قال فيسألانه بعنف وينهرانه بجفاء وقد صار التراب له كالماء حيثما تحرك انفتح فيه ووجد فيه فرجة فيقولان له من ربك ومن نبيك وما قبلتك؟! فمن وفقه الله وثبته بالقول الثابت قال: من وكلكما علىّ ومن أرسلكما إلى، ثم يقول الله ربى ومحمد نبيى والإسلام دينى. وهذا ما يقوله إلا العلماء الأخيار فيقول أحدهما للآخر صدق لقد كفى شرنا ولقن حجته ثم يضربان عليه القبر كالقبة العظيمة ويفتحان له باباً إلى الجنة من تلقاء يمينه ثم يفرشان له من حريرها وريحانها ويدخل عليه من نسيمها وروائحها ويأتيه عمله فى صورة أحب الأشخاص عليه يؤنسه ويحدثه ويملأ قبره نوراً، ولا يزال فى فرح وسرور ما بقيت الدنيا حتى تقوم الساعة فليس شىء أحب إليه من قيامها، ودونه فى المنزلة المؤمن قليل العلم والعمل ليس معه حظه من العلم ولا من أسرار الملكوت، يلج عليه عمله عقيب رومان فى أحسن صورة طيبة الريح حسن الثياب فيقول له أما تعرفنى؟! فيقول من أنت؟! الذى من الله على بك فى غربتى؟! فيقول أنا عملك الصالح لا تحزن ولا توجل فعما قليل يلج عليك منكر ونكير يسألانك

فلا تدهش ثم يلقنه حجته، فبينما هو كذلك إذ دخلا عليه كما تقدم ذكرهما فينهرانه ويقعدانه مستنداً ويقولان له من ربك فيسبق إلى القول الأول فيقول الله ربى ومحمد نبيى والقرآن إمامى والكعبة قلبتى وإبراهيم أبى وملته ملتى غير مستعجم فيقولان له صدقت ويفعلان به كالأول؛ إلا أنهما يفتحان له باباً من النار من تلقاء شمائله فينظر إلى حياتها وعقاربها وأغلالها وسلاسلها وحميمها وجميع ما فيها من صديدها وزقومها فيفزع فيقولان له لا عليك سوء، هذا موضعك كان فى النار قد أبدله الله تعالى بموضعك هذا من الجنة. ثم سعيداً ثم يغلقان عنه باب النار ولم يدر ما مر عليه من الشهور والأعوام والدهور.

* ومن الناس من يتعجم فى مسئلته وإن كانت عقيدته مختلفة امتنع أن يقول الله ربى وأخذ يذكر غيرها من الالفاظ فيضربانه ضربة يشتعل قبره منها ناراً ثم يطفأ عنه أياما ثم يشتعل عليه أيضا ثم يكون هذا دأبه ما بقيت الدنيا.

* ومن الناس من يشق عليه ويعسر ان يقول الإسلام دينى بشك كان يتوهمه أو فتنة تقع به عند الموت فيضربانه ضربة واحدة فيشتعل عليه قبره ناراً كالاول، ومن الناس من يعسر عليه ان يقول القرآن إمامى لانه لا يتلوه ولا يتعظ ولا يعمل بأوامره ولا ينتهى بنواهيه يطوف عليه دهره ولا يعظ نفسه خيره، فيُفعل به ما فعل بالاولين.

ومن الناس من يستحيل عمل جروا يعذب به فى قبره على قادر جرمه، وفى الأخبار ان فى الناس من يستحيل عمله حنوضا وهو ولد الخنزير.

ومن الناس من يعسر عليه ان يقول محمد نبيى لانه كان ناسيا لسنته.

* ومن الناس من يعسر عليه ان يقول الكعبة قبلتى لقلة تحريه فى صلاته أو فساد فى وضوئه أو التفات فى صلاته أو اختلال فى ركوعه وسجوده. ويكفيك ما روى فى فضائلها ان الله لا يقبل صلاة ممن عليه صلاة ومن عليه ثوب حرام ومن الناس من يعسر عليه ان يقول ابى إبراهيم لانه سمع كلاماً يوما أوهمه ان إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا فإذا هو شاب مرتاب فيفعل به ما فعل بالآخرين. وكل هذه الأنواع كشفناها فى كتاب الأحياء(١).

* * *

(١) ذكرها بالتفضيل الإمام الغزالى فى كتابه القيم إحياء الدين فى باب حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور الجزء الرابع ص ٤٤٩ ط دار الصابونى.

أحوال الموتى الفجرة في القبور

* وأما الفاجر فيقولان له : من ربك فيقول لا أدرى فيقولان له : لا دريت ولا عرفت ثم يضربانه بتلك المقامع الحديد حتى يتجلجل فى الأرض السابعة ثم تنقضه الأرض فى قبره ثم يضربانه سبع مرات، ثم تختلف أحوالهم، فمنهم من يستحيل عمله كلباً ينهشه حتى تقوم الساعة وهم المرتابون، وهى أنواع تعترى أهل القبور، وإنما آثرنا الاختصار فى ذكرها، وأصلها أن الرجل إنما يعذب فى قبره بالشىء الذى كان يخافه فى الدنيا.

* فمن الناس من يخاف الجرو، وأكثر طبائع الخلق مفترقة، نسأله الله السلامة والغفران قبل الندامة.

وقد روى عن غير واحد من الموتى أنه رؤى فى المنام فقيل له كيف كان حالك فقال صليت بلا وضوء فوكل الله على ذئبا يروعنى فى قبرى فحالى معى سوء حال.

وآخر رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال فإنى لم أتمكن فى غسل يوم من الجنابة فألبسنى الله ثوبا من نار أتقلب فيه إلى القيامة.

* ورؤى آخر فقيل له : ما فعل الله بك فقال : الغاسل الذى غسلنى حملنى بعنف فخدشنى مسمار كان فى المغتسل قائما فتألمت منه فلما أصبح الصباح سئل الغاسل فقال كان ذلك من غير اختيارى.

* ورؤى آخر فى المنام فقيل له كيف حالك أو لم تمت قال نعم وأنا بخير غير أن الحجر كسر ضلعى عندما سوى على التراب فاضرنى ففتح القبر فوجدوه كما قال.

وآخر جاء إلى ولده فى النوم فقيل له يا ولد سوء، أصلح قبر أبيك، لقد آذاه المطر، فلما أصبح بعث الرجل إلى قبر أبيه فوجد جدولاً من الماء وقد أتى عليه من سيل، وإذا بالقبر مملوء من الماء.

* وعن أعرابى أنه قال لولده مافعل الله بك قال ما ضرنى إلا أن دفنت بازاء فلان وكان فاسقاً، قد روعنى ما يعذب به من أنواع العذاب، وكثيرا ما جاء فى مثل هذه الأخبار

حكايات تبين ان اهل القبور يؤلمون فى قبورهم، وكفى بالخبر دلالة حيث يقول صاحب الشرع ﷺ «يؤلم الميت فى قبره كما يؤلم الحى فى بيته»[١].

وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسر عظام الميت. وقد مر برجل قاعد على فناء قبر فنهاه وقال لا تؤذوا الموتى فى قبورهم[٢]، وقد زار النبى ﷺ قبر آمنة فبكى وابكى من كان معه ثم قال: استأذنت ربى فى الاستغفار لها فلم يأذن لى فاستأذنت قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكر الموت»[٣].

وكان إذا حضر إلى المقابر ليزورها يقول ﷺ «سلاماً على أهل الدار من المسلمين والمؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع. اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز بعفوك عنا وعنهم»[٤].

---

(١) أخرجه الديلمى عن عائشة رضى الله عنها، ويقول القرطبى معقباً على هذا الحديث: «يجوز ان يكون الميت يبلغه من أفعال الأحياء وأقوالهم ما يؤذيه، بلطيفة يحدثها الله لهم من ملك مبلغ، او علامة او دليل او ما شاء الله، فذلك زجر عن سوء القول فى الأموات.

وقال: يجوز ان يكون المراد به اذى الملك له من التغليظ، والتقريع تمحيصا لما كان يأتيه من المعاصى انظر شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور ص ١٣٩٥.

وفى الحديث النهى عن سب الأموات والزجر عن فعل ما كان يسؤوهم فى حياتهم، وفيه ايضا زجر عن حقوق الآباء والامهات بعد موتهما بما يسؤوهما من فعل الشيء.

(٢) رواه الإمام احمد فى مسنده وابو داود وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها قالت قال ﷺ «كسر عظم الميت ككسره حياً».

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ويدخل فى معنى الزيارة، الرحمة للميت والرقة له، وتانيسا له ايضا.

وزيارة القبور على اقسام:

القسم الأول: ان يكون لمجرد تذكر الموت والآخرة، وهذا يكفى فيه رؤية القبور من غير معرفة بأصحابها، ولا قصد امر آخر من الاستغفار لهم ولا من التبرك بهم ولا من اداء حقوقهم، وهو مستحب لقوله ﷺ «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة، والإنسان إذا شاهد القبر تذكر الموت وما بعده وفى ذلك عظة واعتبار، وهذا المعنى ثابت فى جميع القبور، ودلالة القبور على ذلك متساوية.

القسم الثانى: زيارتها للدعاء لأهلها كما ثبت من زيارة النبى ﷺ لأهل البقيع، وهذا مستحب فى حق كل ميت من المسلمين.

القسم الثالث: للتبرك بأهله إذا كانوا من أهل الصلاح والخير.

القسم الرابع: لأداء حقهم فإن من كان له حق على الشخص فينبغى له بره فى حياته وبعد موته، والزيارة من جملة البر لما فيها من الإكرام ويشبه ان تكون زيارة النبى ﷺ قبر امه من هذا القبيل.

(٤) الحديث رواه بريدة بن الحصيب وأخرجه مسلم فى الطهارة ٣٩، والجنائز ١٠٣، وأبو داود فى الجنائز ٧٩، والنسائى فى الطهارة ١٠٩ والجنائز ١٠٣.

فكان يعلم نساءه ﷺ، إذا خرج النساء إلى المقابر يقول لهن قولوا هذا الكلام ويعلمهن إياه[١].

وقال صالح المزنى سألت بعض العلماء لأى شيء نهى عن الصلاة فى المقبرة فقال ورد حديث فاستدل بحديث لا تصلوا بين القبور فإن ذلك حسرة لا منتهى لها[٢].

* وروى عن بعضهم أنه قال: قمت أصلى ذات يوم فى المقابر وقد اشتد الحر وقوى، إذ رأيت شخصا يشبه أبى جالسا على ظهر قبره فسجدت فزعاً، فسمعته يقول ضاقت عليك الأرض رحبا حتى جئت تؤذينا بصلاتك منذ زمان.

* وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ وسلم مر بيتيم يبكى على قبر أبيه فبكى رحمة له ثم قال: إن الميت ليُعذَب ببكاء أهله عليه أى أن ذلك يحزنه ويسوءه فكم من ميت رؤى فى المنام فقيل له كيف حالك يا فلان فيقول حال سوء ساء حالى من

---

(١) فى زيارة النساء اربعة اوجه اشهرها انها مكروهه، جزم به الشيخ ابو حامد، والمحاملى وابن الصباغ، والجرجانى ونصر المقدس وغيرهم.

وقال الرافعى «إن الأكثرين لم يذكروا سواه».

وقال النووى رضى الله عنه «قطع به الجمهور وصرح بانها كراهة للتنزيه.

والثانى: انها لا تجوز قال صاحب المهذب، وصاحب البيان.

والثالث: لا تستحب ولا تكره بل تباح قاله الروبانى.

والرابع: إن كانت لتجديد الحزن والبكاء بالتعديد والنوح على ما جرت به عادتهن فهو حرام، وعليه يحمل الخبر، وإن كانت للاعتبار بغير تعديد ولا نياحه كره، إلا ان تكون عجوزاً لا تشتهى فلا تكره كحضور الجماعة فى المساجد.

وفرق بين الرجل والمراة بان الرجل معه من الضبط والقوة بحيث لا يبكى ولا يجزع بخلاف المرأة.

واحتج المانعون بقوله ﷺ «لعن الله زوارات القبور» رواه الترمذى من حديث أبى هريرة، وقال حسن صحيح ورواه ابن ماجه من حديث حسان بن ثابت.

واحتج المجوزون باحاديث منها قوله ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها».

وأجاب المانعون: بأن هذا الخطاب للذكور ومنها قوله ﷺ للمراة التى رآها عند قبر تبكى «اتقى الله واصبرى» ولم ينهها عن الزيارة وهو استدلال صحيح.

ومنها قول السيدة عائشة: كيف اقول يا رسول الله؟ قال: «قولى: والسلام على أهل الديار من المؤمنين».

(٢) رواه البخارى (٣ / ١٥٢) فى الجنائز باب قول النبى ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء....، ومسلم ٩٣٢ فى الجنائز باب: الميت يعذب ببكاء اهله عليه.

ورواه مسلم عن عمر (٩٢٧) فى الجنائز باب: الميت يعذب ببكاء اهله عليه، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣ / ١٦): رواه الطبرانى فى الكبير وفيه عمر بن إبراهيم الانصارى وفيه كلام وهو ثقة.

فلان وفلانة كانا يكثران البكاء والنواح عليّ إلا أن الزنادقة يكثرون ذلك[١].

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ما من أحد منكم يمر بقبر أخيه المؤمن ممن يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه، وكذا حدث عليه الصلاة والسلام وقد انصرف عن جنازة دفنوها أنه يسمع قرع نعالهم وهم بغيره أسمع.

ومات بعض الفقهاء ولم يُوصى بشيء ثم طاف على أهل بيته بالليل وقال: اعطوا فلانا كيت وكيت من الزرع وادفعوا لفلان كتابه الذى كان عندى مودوعاً منذ زمان، فلما أصبحوا ذكر كل واحد منهم لأخيه ما رأى ثم دفعوا الزرع وطلبوا الكتاب فلم يجدوه فتعجبوا من ذلك ثم إنهم وجدوه بعد زمان فى زوايا البيت.

* وعن بعضهم قال: «اتخذ أبونا لنا مؤدباً يعلمنا الكتابة فى الدار فمات، فخرجنا إلى قبره بعد ستة أيام وجعلنا نتذاكر أمر الله عز وجل فمر بنا طبق من تين فاشتريناه أكلناه ورمينا الأذناب على القبر فلما كانت تلك الليلة رأى أبونا الشيخ فى المنام فقال له: كيف حالك فقال: بخير غير أن أولادك اتخذوا قبرى مزبلة وتحدثوا عليّ بكلام هو كفر فخاصمنا أبونا الشيخ وقال: إن الشيخ قال لى إنهم قالوا عند قبرى شيئا يشبه الكفر فقلنا: يا سبحان الله لا يزال يؤدبنا فى الدنيا والآخرة»[٢]، ومن هذه الحكايات كثير إلا أنى ذكرت هذا القدر مثالاً ومواعظ ليُعتبر بالأقل.

---

(١) قال بعض العلماء أو أكثرهم: إنما يعذب الميت ببكاء الحى إذا كان البكاء من سنة الميت واختياره كما قال:

إذا مت فانعينى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد وكذلك إذا أوصى به.

وذكر أبو عمر بن عبدالبر فى كتاب الاستيعاب من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: الميت يعذب ببكاء الحى عليه، إذا قالت النائحة واعضداه واناصراه واكاسياه جنب الميت.

وقيل له: أنت عضدها أنت ناصرها أنت كاسيها.

وقال الحسن: إن من شر الناس للميت: أهله يبكون عليه، ولا يقضون دينه.

(٢) أخرجه ابن عبدالبر فى الاستذكار والتمهيد.

وعزاه السيوطى للخطيب وابن عساكر فى التاريخ عن أبى هريرة، وقال ابن الجوزى: حديث لا يصح، وقد اجمعوا على تضعيف عبدالرحمن بن زيد أى أحد رواته، وقال ابن شبان: يقلب الأخبار، ولا يعلم حتى كثر فى روايته واستحق الترك، وأفاد الحافظ العراقى أن ابن عبدالبر خرجه فى التمهيد والاستذكار بإسناد صحيح من حديث ابن عباس، ومن صححه عبدالحق بلفظ: ما من أحد يمر بقبر أخيه.. .«انظر فيض القدير (٥/١٤٨٧).

أحــوال أهـل القبــور

وأما أهل القبور فعلى أربعة أحوال:

١ – فمنهم القاعد على عقبه حتى تنتثر العين وتورم الجثة. ويعود الجسم ترابا ثم لا يزال بعد ذلك طوافا فى الملكوت دون سماء الدنيا.

٢ – ومنهم من يرسل الله عليه نعسة فلا يدرى ما فعل حتى ينتبه مع النفخة الاولى ثم يموت.

٣ – ومنهم من لا يقوم على قبره إلا شهرين أو ثلاثة ثم تركب نفسه على طير يهوى به فى الجنة وهو الحديث الصحيح حيث يقول صاحب الشرع ﷺ «نسمة المؤمن من طائر يعلق فى شجر الجنة»(١).

وفى المعنى الصحيح والوجه الحسن وكذلك سئل عن أرواح الشهداء فقال الشهداء فى حواصل طيور خضر تعلق بهم فى شجرة الجنة(٢)».

ومن الناس من إذا بادت عينه عرج به إلى الصور فلا يزال لازما له حتى ينفخ فى الصور.

والنوع الرابع: خص به الأنبياء والأولياء ولهم الخيار فمنهم من يكون طوافاً فى الأرض حتى تقوم الساعة وكثيرا ما يرى فى الليل وأظن الصديق منهم والفاروق والرسول ﷺ

---

(١) هذا الحديث رواه كعب بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ إنما نسمة المؤمن طير تعلق فى شجرة الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة، وهذا صريح فى دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة وهذا الحديث رواه البخارى فى الكسوف، وتفسير سورة.. والرقاق ٢٧، ورواه مسلم فى الصلاة ١١٢، والنسائى فى السهو ١٠٢ والكسوف ١١، ولقطة عند مسلم وهو جزء من حديث طويل: «لو رايتم ما رايت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً، قالوا: وما رايت يا رسول الله ...؟ قال رايت الجنة والنار».

(٢) ففى صحيح مسلم عن مسروق قال: ما سالنا عبدالله بن مسعود عن هذه الآية «ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون».
فقال أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تاوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: اى شىء نشتهى ونحن نسرح فى الجنة حيث نشاء؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا انهم لن يتركوا من ان يسالوا قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا فى اجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة اخرى، فلما راى ان ليس له حاجة تركوا».

له الخيار فى طواف العوالم الثلاثة وعن هذه الإرادة قال يوما تنبيهاوإشارة ﷺ إنى أكرم علىّ من أن يدعنى فى الأرض أكثر من ثلاث وكانت ثلاث عشرات لأن الحسين قتل على رأس الثلاثين سنة فغضب على أهل الأرض وعرج إلى السماء وقد رآه بعض الصالحين فى النوم فقال: يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما ترى فى فتن أمتك قال: زادهم الله فتنة قتلوا الحسين ولم يحفظونى فيه ثم جعل يعدد كلاماً أشقبه على الراوى.

منهم من اختار السماء السابعة كإبراهيم عليه السلام.

* وفى الحديث أنه أمر ﷺ وهو مسند ظهره إلى البيت المعمور وقد احدق به أولاد المسلمين وعيسى عليه السلام فى السماء الخامسة وفى كل سماء رسل وانبياء لا يخرجون منها ولا يبرحون حتى الصعقة وليس منهم من له الخيار إلاالخليل والكليم والروح والحبيب، هؤلاء ينتهون حيث أرادوا من العالمين .

واما الأولياء فمنهم من وقف على البعثة الدنيوية كما روى عن أبى يزيد أنه تحت العرش يأكل من مائدة، وعلى هذه الأنواع الأربعة حال أهل القبور يعذبون ويرحمون ويهانون ويكرمون الذين هم منهم يحدقون بالمبيت إذا احتضر حتى يضيق بهم رحاب المنازل وربما كشف له فيراهم ويفطن بهم وقد رأيت من حدث بهذا النوع.

* وقد رأيت بعض الأصحاب كشف عن بصيرته فنظر إلى ولده الميت قد ولج البيت والميت يفيق ويتصور، وهذه الفوائد الملكوتية إنما تكون لكريم او نسيب نسأل الله أن يجود لنا بمعرفة ما نخوض به بحر أسرارها حتى يرتفع الشك والارتياب ومع هذه الأنواع الموصوفة لا يعقل منهم تكوين الليل والنهار إلا من كان عينه باقية لم يعرج به علوا فمنهم من يعرف الجمعة والأعياد وإذا خرج أحد من الدنيا اجتمعوا إليه وعرفوا فهذا يسأل عن زوجته وهذا يسأل عن والده وكل واحد يسأل عن اربه وربما مات الميت فلم يلق أحداً من معارفه لزيغ يصيبه عند الموت فيموت يهوديا أو نصرانيا فيصير إلى عساكرهم فإذا قدم أحد من الدنيا سأله جيرانه: ما علمك بفلان فيقول لهم: قد مات فيقال: إنا لله وإنا إليه راجعون ما رأيناه سلك به إلى أمه الهاوية.

* وقد رؤى بعض الناس فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال أنا وفلان وفلان وعد خمسة من أصحابه فى خير كثير ونعمة وكان قتله الخوارج مع أصحابه المعروفين.

وسئل عن جار له: ما فعل الله به؟ فقال: ما رأيناه وإنما كان هذا المنكور ألقى نفسه في اليم حتى مات غرق وأظنه والله مع قاتلى أنفسهم.

* وفى الصحيح ان رسول الله ﷺ قال: «من قتل نفسه بحديدة جاء يوم القيامة وحديدته في يده متوجأ بها في بطنه في بطن جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم الحديث(١)».

وكذلك المراة تموت بحد لاتزال تجد ذلك الالم حتى النفخة فهذه حياة ثانية.

* وقد صح ان آدم عليه السلام لقى موسى عليه السلام فقال له: «انت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته واسكنك جنته، فلم عصيته؟

قال له: يا موسى أنت الذى أتخذك الله كليما وأنزل عليك التوراة ألم تر فيها «وعصى آدم ربه»؟ قال له موسى: نعم، فقال له: في كم سنة وجدت الذنب قُدر عليّ قبل فعله؟ قال له: كتب عليك قبل أن تفعله بخمسين ألف سنة، قال: يا موسى افتلومني على ذنب قُدر عليّ قبل ان افعله بخمسين الف عام؟».

* وفى الصحيح ان رسول الله ﷺ صلى بالمرسلين ليلة أُسرى به ركعتين وانه سلم على هارون عليه السلام فدعا له بالرحمة ولامته وانه سلم على إدريس فدعا له بالرحمة ولامته وكان اولئك قد ماتوا وبادت اعينهم وإنما هى حياة الانفس وبعد هذا الإحياء حياة ثالثة والحياة الأولية يوم أشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا. ولايعتد بالحياة الدنيوية فإنما مسخرة للتنعم.

* ويروى عليه الصلاة والسلام أنه قال: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»(٢).

فهذه احوال الأموات إذا بادت اعينهم منهم المستقر ومنهم الطواف ومنهم المضروب

---

(١) الحديث رواه الإمام البخارى فى كتاب الجنائز ٨٣ باب ما جاء فى قاتل النفس ٣٦٣ - حدثنا يزيد بن زريع حدثنا خالد عن ابى قلابة عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من حلف بملة غير الإسلام كاذباً متعمداً فهو كمال قال. ومن قتل نفسه بحديدة عذب به فى نار جهنم».
ورواه الإمام مسلم فى كتاب الايمان ١٧٥ - والترمذى فى الطب ٧ والنسائى فى الجنائز ٦٨ والدارمى فى الديات واحمد بن حنبل فى المسند ٢: ٢٥٤، ٤٧٨، ٤٨٨ «حلبى».

(٢) هذا ليس بحديث إنما قول سيدنا على بن ابى طالب - انظر كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلونى جـ٢ ط مؤسسة الرسالة بيروت.

عليه ومنهم المعذب والدليل على صحة قوله تعالى : ﴿ **النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾[١] واليوم بيان عذاب البرزخ .

* * *

---

(١) سورة غافر (٤٠) آية (٤٦) وجه الدلالة فى الآية أن النار التى يعرضون عليها ليست نار يوم القيامة فما فى القيامة غدو وعشى، وما فيها شروق وغروب، ثم إن العطف يقتضى المغايرة، ومنطوق الآية : إن آل فرعون يعرضون على النار فى الصباح وفى المساء يرون مكانهم فيها ومصيرهم الذى سيصيرون إليه ، حتى إذا كان يوم القيامة نادى مناد آمراً : ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ادخلوهم بعد أن كانوا يعرضون عليها غدواً وعشياً، ادخلوهم إلى إقامة مستمرة .

قال ابن مسعود : تعرض أرواحهم من حين موتهم إلى قيام الساعة .

وقال تفسير الجلالين : هذه الآية تدل على عذاب القبر فى الدنيا، الاتراه يقول عن عذاب الآخرة « ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

وفى الحديث عن ابن مسعود أن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار بالغداة والعشى فيقال : هذه داركم .

أحـوال الـدنيـا
عند قيام الساعة وما بعد ذلك

فإذا أراد الله تعالى قيام الساعة دون النفخ فى الصور على السر الذى بيّناه فى الأحياء فإذا الجبال تتطاير وتسير مثل السحاب وإذا البحار قد تفجرت بعضها فى بعض وتكورت الشمس فعادت سوداء مزيرة وسجرت الجبال على أمثال عالم الهواء ودخل العالم بعضه فى بعض وانتثرت النجوم كالسلك إذا انتثر من نظمه وعادت السماء كدهن الورد تدور كدوران الرحا والأرض قد زلزلت زلزالاً شديداً تارة تنقبض وتارة تنبسط كالاديم حتى ان الله يأمر بخلع الأفلاك فلا يبقى فى الأرضين السبع ولا السموات السبع ولا فى الكرسى حى كائن إلا وقد ذهبت نفسه وإن كان روحانيا ذهبت روحه وقد خلت الأرض من عمارها والسماء من سكانها على ضروب الموحدين.

ثم إن الله جل جلاله يتجلى فى المقام فيقبض السموات السبع فى يمينه والأرضين السبع الأخرى ثم يقول الله عز وجل: يا دنيا يا دانية أين أربابك؟ وأين أصحابك؟ فتنتيهم ببهجتك وشغلتيهم عن آخرتهم بزهوتك ثم يثنى على نفسه بما شاء ويفتخر بالبقاء المستمر والعز الدائم والملك الباقى والقدرة القاهرة والحكمة الباهرة ثم يقول تعالى: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه بأن يقول: لله الواحد القهار ثم يفعل فعلا أعظم من الأول وهو أن يأخذ السموات على اصبع والأرضين على اصبع ثم يهزها ويقول سبحانه: أنا الملك الديان، أين عبدة الأوثان الذين عبدوا غيرى من دونى واشركوا بى وأكلوا رزقى؟ أين الذين تقووا برزقى على المعاصى؟ أين الجبابرة؟ أين من تكبر وافتخر؟ لمن الملك اليوم كالمرة الأولى؟ ثم يمكث كذلك سبحانه وتعالى ما شاء الله وليس من العرش إلى المقام نسمة تلوح تعقل وقد ضرب الله على آذان الحور والولدان فى جنتهم ثم يكشف الله سبحانه وتعالى عن بئر فى سقر فيخرج منها لهيب النار فتشتعل فى الاربعة عشر بحراً كما تشتعل النار فى الصوف المنقوش فما تدع منها قطرة واحدة ولاتدع الأرضين جملة سوداء كأنها عكر الزيت والنحاس المذاب، فإذا دنت اللهيب ان تتعلق بعنان السماء زجر الله النار زجرة خمدت ثم لا يرفع لها لهيب ثم يفتح الله سبحانه وتعالى خزانة من خزائن العرش فيها بحر الحياة فتمطر الارض، فإذا هو كمنىّ

الرجال فيلقى الأرض عطشى ميتة هامدة فتحيا وتهتز ولا يزال المطر عليها حتى يعمها ويكون الماء أربعين ذراعاً فإذا الأجسام تنبت من العصعص، وفى الحديث أن الإنسان يبدأ من عجب الذنب ومنه يعود وفى رواية أخرى يبلى المرء كله إلا عجب الذنب منه بُدئ ومنه يعود(١). وهو عظم على قدر الحمصة ليس له مخ فمنه تنبت الأجسام فى مقابرها كما ينبت البقال حتى يشتبك بعضها فى بعض فإذا رأس هذا عند منكب هذا ويد هذا عند عجز هذا لكثرة البشر.

وفى معنى قوله عز وجل: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق: ٤] نبهنا عليه فى كتابنا الأحياء فإذا تمت النشأة على حسبها الصبى صبى والشيخ شيخ والكهل كهل والفتى فتى والشاب شاب أمر الجليل جل جلاله أن تهب ريح من تحت العرش فيها نار لطيفة فيكشف ذلك عن الأرض وتبقى الأرض بارزة ليس فيها حدب ولاعوج ولا أمت وقد عادت الجبال رمالا وهو الكثيب المهيل ثم يحيى الله سبحانه وتعالى إسرافيل فينفخ فى الصور من صخرة بيت المقدس والصور قرن من نور له أربعة عشر دارة الدارة الواحدة فيها ثقب بعدد أرواح البرية فتخرج أرواح البرايا لها دوى كدوى النحل فتملأ ما بين الخافقين ثم تذهب كل نسمة إلى جثتها فسبحان ملهمهم إياها حتى الوحش والطير وكل ذى روح فإذا الكل كما قال تعالى ثم نفخ فيه نفخة أخرى فإذا هم قيام ينظرون الزجرة العظيمة هى الصيحة كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات: ١٤].

والساهرة هى الأرض السفلى لأنهم فتحوا أبصارهم عند قيامهم فنظروا إلى جبال منسوفة وبحار منزوفة والأرض لاعوج فيها ولا أمتار، والأمت الشىء المرتفع كالربوة، والعوج الأرض المنخفضة كالوهدة والأودية وإنما صارت مستوية كأنها صحفة قاعدة فتعجبوا لما نظروا من الساهرة وقعد كل واحد منهم على قبره عريانا منتظراً متعجبا

---

(١) الحديث رواه البخارى فى التفسير سورة ٣٩، ٧٨
ورواه مسلم فى الفتن ١٤١ – ١٤٣.
وأبو داود فى السنة ٢٢، والنسائى فى الجنائز ١١٧
وابن ماجه فى الزهد ٣٢، والموطأ فى الجنائز ٤٩.
وأحمد بن حنبل ٢ – ٣٢٢، ٤٢٨.
ولفظة « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب ».

متفكراً معتبراً كما قال ﷺ فى الصحيح عراة غرلاً أى غير مجنونين إلا قوما ماتوا فى الغربة مؤمنين لم يكفنوا فإنهم يحشرون وقد كسوا ثيابا فى الجنة وأقواما ماتوا شهداء فيقومون وقد كسوا من الجنة وأقواما أيضا من أمة محمد ﷺ متحرين السنة ما حافوا عنها سم الخياط فإن رسول الله ﷺ قال: «بالغوا فى أكفان موتاكم فإن أمتى تحشر بأكفانها وسائر الأمم عراة»[1] رواه أبو سفيان مسنداً.

وقال ﷺ «يحشر الميت فى ثيابه وهى اليوم روينا بالحق، وبعض الموتى لما احتضر قال: اكسونى الثوب الفلانى فمنع منه حتى مات فى غلالة ليس عليه غيرها فرؤى فى المنام بعد أيام قلائل كأنه حزين فقال له: ما بالك؟ فاعرض عن خطابه ثم قال: منعتمونى ثوبى وجعلتمونى احشر فى هذه الغلالة لا غير.

* * *

(١) أخرج الحافظ أبو نصر عبدالله بن سعيد بن حاتم الوائلى السجستانى فى كتاب الإنابة له عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حسنوا اكفان موتاكم، فإنهم يتباهون ويتزاورون فى قبورهم» وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: «إذا كفن احدكم اخاه فليحسن كفنه».

الإقامة التى بين النفختين

وهى الموتة الثانية لأنها منعت من الحواس الباطنة والموت الجسمانى منع من الحواس الظاهرة لأن الأجرام هى الفاعلة للحركة ولأنهم لا يصلون ولا يصومون ولا هم يتعبدون ولو أدخل الله ملكا فى جثة لأقام فيها لأنه ذو حرص على التحيز إلى عالمه والنفس جوهر بسيط فإذا ركبت فى الجسد صحت حياته وأفعاله واختلف الناس فى هذه المدة الكائنة بين النفختين واستقر جمهورهم على أنها أربعون سنة.

وحدثنى من لا شك فى علمه ولا معرفته أن أمر ذلك لا يعلمه إلا الله لأنه من أسرار الربوبية وكذلك حدثنى أن الاستثناء واقع عليه سبحانه وتعالى خاصة، فقلت: ما معنى قول النبى ﷺ «أنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة فإذا أخى موسى آخذ بقائمة العرش[1]»؟

فلا أدرى أبعث قبلى أم كان ممن استثناه الله عز وجل فلا يخرج من هذا الحديث على ما نقدره أن من غير أجسام وإن كان موسى الآن لاجثة له وبعد الاستثناء الذى عن رسول الله ﷺ فى أمر الفزع لأن البرايا عند الصعقة وعند الفزعة كما قال كعب وقد حدث فى مجلس عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عن هول المقام حيث قالوا فلو كان ذلك يا ابن الخطاب عمل سبعين نبيا لظننت أنك لا تنجو من ذلك اليوم إلا قوما استثناهم الله فى هول الفزع والصدق وهم أهل المقام الرابع لا شك أن موسى أحدهم والاستثناء من بلوغ الأمر، ولو كان هناك أحد لأجاب الله تعالى حين «يقول لمن الملك اليوم لقال: لك يا واحد يا قهار.

* * *

(١) الحديث أخرجه البخارى فى أول كتاب الخصومات من حديث وهيب، وأخرجه مسلم رقم ٣٧٤، من طريق سفيان عن سفيان عن عمرو بن يحيى. ويقول صاحب كتاب شرح الطحاوية فى ذلك: ولا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا. ومنه نشأ الإشكال ولكنه دخل فيه على الراوى حديث فى حديث فركب بين اللفظين فجاء هذان الحديثان هكذا أحدهما: أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق.
والثانى «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة» فدخل على الراوى هذا الحديث فى الآخر.
وتخريجه: رواه مسلم رقم ٢٢٧٨، باب تفضيل نبينا ﷺ وأبو داود وأحمد.

أحــوال الناس بعد النفخة الثانيــة

فإذا استوى كل أحد قاعدا على قبره فمنهم العريان والمكسو والأسود والأبيض ومنهم من يكون له نور كالمصباح العظيم ومنهم من يكون له نور كالشمس إلا أن كل واحد منهم لا يزال مطرقا برأسه ما يدرى ما يصنع الف عام حتى تظهر نار من المغرب لها دوى تسوق الخلق إلى المحشر فيندهش لها رؤوس الخليقة إنسا وجنا ووحشا وطيرا فيأخذ كل واحد عمله ويقول قم وانهض إلى المحشر فمن كان له حينئذ عمل جيد تشخص عمله بغلا.

* ومنهم من تشخص عمله حمارا
* ومنهم من تشخص له عمله كبشا تارة يحمله وتارة يلقيه ويجعل لكل واحد نور شعاعى بين يديه وعن يمينه مثله يسرى بين يديه فى الظلمات وهو قوله تعالى: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ [الحديد: ١٢](١).
* وليس عن شمائلهم نور بل ظلمة حالكة لا يستطيع احد النظر فيها، يحتار فيها الكفار ويتردد المرتابون والمؤمن ينظر إلى قوة حلكها. وشدة حندسها ويحمد الله على ما اعطاه من النور المهتدى به فى تلك الشدة ويسعى بين أيديهم لان الله يكشف للعبد المؤمن المتنعم عن أحوال أهل الشقاء المعذبين ليستبين له سبل الفائدة كما فعل أهل الجنة وأهل النار حيث يقول: ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٣٧].

وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الاعراف: ٤٧].

لان أربعا لا يعرف قدرها إلا أربعة:

لا يعرف قدر الحياة إلا الموتى

ولا يعرف قدر الشدة إلا أهل النعم

---

(١) وتمامها: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ آية (١٢).

ولا يعرف قدر الغنى إلا الفقراء

ومن الناس من يسعى على قدميه وعلى أطراف بنانه ، ومنهم من له نور ينطفئ تارة ويشتعل أخرى وإنما نورهم عند البعث على قدر إيمانهم وسرعة خطواتهم على قدر أعمالهم.

قيل لرسول الله ﷺ فى حديث صحيح: كيف نحشر يا رسول الله؟ قال: اثنان على بعير وخمسة على بعير وعشرة على بعير(١).

ومعنى هذا الحديث والله أعلم أن قوما يتلاقون فى الإسلام فيرحمهم الله تعالى خلق لهم من أعمالهم بعيرا يركبون عليه وهذا من ضعف العمل لأنهم مشتركون معهم فهم قوم كقوم خرجوا فى سفر بعيد وليس معهم أحد، منهم من يشترى مطية توصله فاشترك فى ثمنها رجلان أو ثلاثة فاشتروا مطية يتعقبون عليها فى الطريق وقد يبلغ بعير مع عشرة فهذا العجز فى العمل معناه قبض اليد فى المال اى منع التصرف فيه ومع هذا يحكم له بالسلامة فاعمل هداك الله عملا صالحا يكون لك بعيرا خالصا من الشركة، واعلم أن ذلك هو المتجر الرابح فالمتقون وافدون كما قال الجليل جل جلاله ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥].

روى غريب الحديث أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه «كان رجل من بنى إسرائيل كثيرا ما يفعل الخير حتى أنه لحشر فيكم، قالوا له وما كان يصنع؟ قال: ورث من أبيه مالا كثيرا فاشترى بستانا فحبسه للمساكين وقال: هذا بستانى عند الله، وفرّق دنانير عديدة فى الضعفاء وقال: بهذا أشترى جارية من الله تعالى وعبيدا، وأعتق رقابا كثيرة وقال: هؤلاء خدمى عند الله والتفت ذات يوم إلى رجل ضرير البصر فرآه تارة يمشى وتارة يكبو فابتاع له مطية يسير عليها وقال: هذه مطيتى عند الله تعالى أركبها، والذى نفسى بيده لكأننى أنظر إليها وقد جئ بها مسرجة ملجمة بركبها إلى الموقف».

وقيل فى تفسير قوله : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢]، إنه مثل ضربه الله ليوم القيامة فى حشر المؤمنين والكافرين،

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين، واثنان على بعير وثلاثة على بعير وتحشر بقيتهم النار تبيت معهم حيث امسوا».
[أخرجه البخارى أيضا].

كما قال الله تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم : ٨٦] . . أى مشاة على وجوههم .

هذا قول بعض المفسرين وليس الأمر كما حكاه وإنما السر فى ذلك أنه تارة يمشى وتارة يكبو على وجهه والذى ناوله بعيد لان الله تعالى ذكر الأرجل فقال تعالى :﴿ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : ٢٤] وقوله عميا وبكما وصما تفسير غير المقصد الذى أرادوه وترك الإشارة التى نباك عليها فقد رأيت العرب يتمثلون بها ويقولون هذا يمشى على وجهه إذا كان يكبو ومعناه عميا عن النور الذى يشعشع بين أيدى المؤمنين وعن إيمانهم وليس العمى الكلى إرادتهم لانه لا خلاف أنهم ينظرون السماء تنشق بالغمام والملائكة تنزل والجبال تسير والكواكب تنثر وكل أهوال يوم القيامة تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور :١٥] .

فمعنى العمى فى القيامة الخوض فى الظلمة والمنع عن النظر إلى الكريم إذ نور الله سبحانه وتعالى تشرق به الأرض البيضاء وهم قد ضرب على أبصارهم غشاوة لا ينظرون إلى شىء من ذلك كذلك ضرب على آذانهم فلا يسمعون كلام الله تعالى والملائكة الذين ينادون :﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف :٦٨] ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٠] .

وكذلك منعوا عن الكلام فإنهم بكم يفسره قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥-٣٦] .

والممنوع من الشىء موصوف بالضعف على قدرته وإن كانت الصفة فيه موجودة فكانها معدومة الوجود فى حال دون حال، ومن الناس من يحشر بفتنته الدنيوية فقوم مفتونون بالعود وعاكفون عليه دهرهم فعند قيام احدهم من قبره ياخذ بيمينه فيطرحه من يده ويقول : سحقا لك شغلتنى عن ذكر الله، فيعود إليه ويقول : أنا صاحبك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، وكذلك يبعث السكران سكرانا والزامر زامرا وكل أحد على الحال الذى صده عن سبيل الله .

* ومثله الحديث الذى روى فى الصحيح أن شارب الخمر يحشر والكوز معلق فى عنقه والقدح بيده وهو أنتن من كل جيفة على الأرض يلعنه كل من يمر عليه من الخلق .

والميت أيضا يحشر بظلامته وفى الصحيح أن المقتول فى سبيل الله يأتى يوم القيامة وجرحه يشخب دما، اللون لون الدم والريح ريح المسك، حتى يقف بين يدى الله عز وجل.

فإذا ساقتهم الملائكة زمرا أو افواجا تحت كل واحد ما قدر له وجمعوا فى صعيد واحد من انس وجن وشيطان ووحش وسبع وطير وتحولهم الملائكة إلى الأرض الثانية وهى أرض بيضاء من فضة نورية وصارت الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات.

ثم إن الله سبحانه وتعالى يأمر ملائكة السماء الثانية فيحدثون حلقة واحدة فإذا مثلهم عشرين مرة ثم تنزل ملائكة السماء الثالثة فيحدثون بالكل حلقة واحدة فإذا مثلهم ثلاثين ضعفا ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة ضعفا ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة فيحدقون من ورائهم حلقة واحدة فيكونون مثلهم خمسين مرة ثم تنزل ملائكة السماء السادسة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم ستين مرة. ثم تنزل ملائكة السماء السابعة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم سبعين مرة، والخلق تتداخل ويندرج بعضهم فى بعض حتى يعلو القدم الف قدم لشدة الزحام ويخوض العرق على أنواع مختلفة إلى الآذان وإلى الصدر وإلى الحلقوم وإلى المنكبين وإلى الركبتين ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد فى الحمام ومنهم من يصيبه البلل كالعطش إذا شرب بالماء وأصحاب الرأى هم أصحاب المنابر وأصحاب الرشح هم أصحاب الكراسى وأصحاب الكعبين قوم يموتون غرقى والملائكة تناديهم «لا خوف اليوم ولا أنتم تحزنون» وحدثنى بعض العارفين أنهم الأوابون كالفضيل بن عياض وغيره إذ النبى ﷺ قال: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(١)

فإن دليل ذلك قول مطلق وهذه الأصناف أهل الرأى والرشح واهل الكعب هم الذين

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه فى كتاب الزهد ٣٠ باب ذكر التوبة ٤٢٥٠ حدثنا محمد بن عبد الله الرقاش حدثنا وهب بن خالد حدثنا معمر عن عبد الكريم عن ابى عبيدة بن عبد الله عن ابيه قال، قال: رسول الله ﷺ وذكره. قال السندى: الحديث ذكره صاحب الزوائد وقال :إسناده صحيح ورجاله ثقات. ثم ضرب على ما قال: وأبقى الحال على الحال وفى المقاصد الحسنة. رواه ابن ماجه والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من طريق أبى عبيد الله ابن عبد الله بن مسعود عن ابيه رفعه، ورجاله ثقات بل حسنه شيخنا بعين لشواهد وإلا فابو عبيدة: جزم غير واحد بانه لم يسمع من ابيه.

تبيض وجوههم ومن دونهم تسود وجوههم وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق وقد قربت الشمس من رؤوسهم حتى لو أن أحدا مد يده لنا لها ويضاعف حرها سبعين مرة، وقال بعض السلف: لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض وأذابت الصخر ونشفت الأنهار، فبينما الخلائق يمرحون وهم فى تلك الأرض البيضاء التى ذكرها الله تعالى حيث يقول: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم :٤٨]، وهم على أنواع فى المحشر وملوك أهل الدنيا كالذر كما روى فى الخبر فى صفة المتكبر وليس هم كهيئة الذر عينا غير أن الأقدام تطأ عليهم حتى صاروا كالذر فى مذلتهم وانخفاضهم وقوم يشربون ماء باردا عذبا صافيا لأن الصبيان يطوفون على آبائهم بكئوس من أنهار الجنة يسقونهم.

وعن بعض السلف الصالحين أنه نام فرأى القيامة قد قامت وكأنه فى الموقف عطشان ورأى صبيانا صغارا يسقون الناس قال: فناديتهم ناولونى شربة ماء فقال لى واحد منهم: ألك فينا ولد؟ قلت: لا، قال: فلا إذًا، وفى هذا فضل التزويج ولهذا الولد الساقى شروط ذكرناها فى كتابنا الأحياء، وقوم قد دنا على رؤُسهم ظل يمنعهم من الحر وهى الصدقة الطيبة ولا يزالون كذلك ألف عام حتى إذا سمعوا نقر الناقور الذى وصفناه فى كتابنا الأحياء وهو من بعض أسرار القرآن فتوجل له القلوب وتخشع له الابصار لعظم نقره وتساق الرؤوس من المؤمنين والكافرين يظنون أن ذلك عذابا يزداد فى هول يوم القيامة فإذا بالعرش يحمله ثمانية أملاك يسير قدم الملك منهم مسير عشرين ألف سنة وأفواج الملائكة وأنواع الغمام وأصوات التسبيح لا تطيقه العقول حتى يستقر العرش فى تلك الأرض البيضاء التى خلقها الله تعالى لهذا الشأن خاصة فتطرق الرؤوس وتحضر وتنحبس وتشفق البرايا وترعب الأنبياء وتخاف العلماء وتفزع الأولياء والشهداء من عذاب الله الذى لا يطيقه شيء، فبينما هم كذلك إذ غشيهم نور غلب على نور الشمس التى كانوا فى حرها فلا يزالون يموج بعضهم فى بعض ألف عام والجليل لا يكلمهم كلمة واحدة فحينئذ تذهب الناس إلى آدم عليه السلام فيقولون: يا آدم يا أبا البشر الأمر علينا شديد، وأما الكافر فيقول: يا رب رحمتى ولو إلى النار من شدة ما يرى من الهول، ويقولون: يا آدم أنت الذى خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ونفخ فيك من روحه اشفع لنا فى فصل القضاء فيؤمر بكل حيث يشاء سبحانه وتعالى فيفعل بهم ما يشاء، فيقول: عصيت الله حيث نهانى عن أكل الشجرة وأنا أستحى أن أكلمه فى هذه الحالة ولكن

اذهبوا إلى نوح عليه السلام فإنه أول المسلمين.

فيقيمون ألف عام يشتورون فيما بينهم ثم يذهبون إلى نوح فيقولون له: أنت أول المرسلين فيذكرون له مثل ذلك ثم يطلبون منه الشفاعة فى فصل القضاء بينهم فيقول: إننى دعوت دعوة أغرقت بها أهل الأرض وإنى أستحى من الله تعالى أن أسأله مثل ذلك ولكن انطلقوا إلى إبراهيم خليل الله تعالى هو سماكم المسلمين من قبل فلعله يشفع لكم، فيتشاورون فيما بينهم ألف عام ثم يأتونه عليه السلام فيقولون: يا إبراهيم يا أبا المسلمين أنت الذى اتخذك الله خليلا فاشفع لنا إلى الله لعله يفصل فيما بين خلقه فيقول لهم: إنى كذبت فى الإسلام ثلاث كذبات جادلت بهن عن دين الله فأنا أستحى من الله أن أسأله الشفاعة فى مثل هذا المقام ولكن اذهبوا إلى موسى عليه السلام فانه اتخذه الله كليما وقربه نجيا عسى أن يشفع لكم، فيتشاورون فيما بينهم ألف عام والحال يزيد شدة والموقف ضيقا فيأتون موسى فيقولون له: يا ابن عمران أنت الذى اتخذك الله كليما وقربك نجيا وأنزل إليك التوراة فاشفع لنا فى فصل القضاء فقد طال المقام واشتد الزحام وتراكمت الأقدام ونادى أهل الكفر والإسلام من طول المقام فيقول لهم موسى إنى سألت الله تعالى أن يأخذ آل فرعون بالسنين وأن يجعلهم مثلا للآخرين وأنا أستحى من الله تعالى أن أسأله الشفاعة فى مثل هذا المقام مع أسباب جرت بينى وبينه فى المناجاة يوح فيها تعريض الهلاك إلا أنه ذو رحمة واسعة ورب غفور لكن اذهبوا إلى عيسى عليه السلام فإنه أصح المرسلين يقينا وأكثرهم معرفة بالله تعالى وأشدهم زهدا وأبلغهم حكمة فلعله يشفع لكم، فيتشاورون فيما بينهم ألف عام والحال يزيد شدة والموقف يزداد ضيقا وهم يقولون: حتى متى نحن من رسول الله ومن كريم إلى كريم فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون له أنت روح الله وكلمته وأنت الذى سماك الله وجيها فى الدنيا والآخرة اشفع لنا إلى ربك فى فصل القضاء فيقول: إن قومى اتخذونى وأمى إلهين من دون الله فكيف اشفع عند من عبدت معه وسُميت له ابنا وسُمى لى أبا؟ ولكن أرأيتم لو كان لأحدكم كيس فيه نفقة وعليه خاتم أكان يبلغ إلى ما فى الكيس حتى يفض الخاتم؟ قالوا: نعم يا نبى الله، قال لهم: اذهبوا إلى سيد المرسلين وخاتم النبيين أخى فإنه ادخر دعوته شفاعة لأمته وكثيرا ما أذاه قومه شجوا جبينه وكسروا رباعيته وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وإنه لأحسنهم فخارا وأكبرهم شرفا وهو يقول كما قال الصديق

لاخوته «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»، وجعل يتلو عليهم من فضائله ﷺ ما لم تمحه آذانهم حتى امتلأت نفوسهم حرصا على الذهاب إليه فصاروا حتى أتوا إلى منبره ﷺ وقالوا له: صلى الله عليك وسلم أنت حبيب الله و الحبيب أوجه الوسائط اشفع لنا إلى ربك فقد ذهبنا إلى ابينا آدم فأحالنا على نوح فذهبنا إلى نوح فأحالنا على إبراهيم وذهبنا إلى إبراهيم فأحالنا على موسى فذهبنا إلى موسى فأحالنا على عيسى وذهبنا إلى عيسى فأحالنا عليك ﷺ، وليس بعدك مطلب ولا عنك مهرب فيقول ﷺ: أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ثم ينطلق ﷺ إلى سرادقات الجلال فيستأذن فيؤذن له ثم يرفع الحجاب ويلج العرش ويخر ساجدا ويمكث فيها القائم بحمد الله تعالى بمحامد ما حمده بها أحد قط - قال بعض العارفين: إن تلك المحامد التى أثنى الله بها على نفسه يوم فراغه من خلقه - فيتحرك العرش تعظيما وقد حار صحيفة من الصحف التى تقدم ذكرها فى الاحياء، والناس فى تلك المدة قد ضاق مكانهم وساءت أحوالهم وترادفت أهوالهم وقد طوق كل واحد منهم ما بخل به فى الدنيا فمانع زكاة الإبل يحمل بعيرا على كاهله له رغاء وثقل يعدل الجبل العظيم والرغاء والخوار كالرعد القاصف ومانع زكاة الزرع يحمل على كاهله اعدالا قد ملئت من الجنس الذى كان يبجل به برا كان أو شعيرا ثقل ما يكون ينادى تحته بالويل والثبور ومانع زكاة المال يحمل شجاعا أقرع له زبيبتان وذنبه قد صب فى منخره واستدار بجيده وثقل على كاهله حتى كأنه طوق به كل رحى فى الأرض وكل واحد ينادى: ما هذا؟ فتقول لهم الملائكة: هذا ما بخلتم به رغبة فيه وشحا عليه وهو قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وآخرون قد عظمت فروجهم وهى تسيل صديدا تتأذى بنتنهم جيرانهم، وآخرون قد صلبوا على جذوع النيران، وآخرون قد خرجت السنتهم على صدورهم اقبح ما يكون وهم الزناة واللاطة والكاذبون، وآخرون قد عظمت بطونهم كالجبال الرواسى وهم آكلو الربا، وكل ذى ذنب قد بدا سوء ذنبه ظاهرا عليه.

* * *

شفاعته ﷺ

فينادى الجليل جل جلاله : يا محمد ارفع راسك وقل يسمع لك واشفع تشفع فيقول ﷺ : يا رب افصل بين عبادك فقد طال مقامهم وقد فصح كل واحد بذنبه فى عرضات يوم القيامة فيأتى النداء : نعم يا محمد ويأمر الله بالجنة فتزخرف ويأتى بها ولها نسيم طيب أعبق ما يكون وازكى فيوجد ريحها مسيرة خمسمائة عام فتبرد القلوب وتحيا النفوس إلا من كانت أعمالهم خبيثة فإنهم منعوا من ريحها فتوضع عن يمين العرش، ثم يأمر الله تعالى أن يؤتى بالنار فترعب وتفزع وتقول للمرسلين إليها من الملائكة : اتعلمون ان اللخ خلق خلقا يعذبنى به؟ فيقولون : لا وعزته وإنما ارسل إليك لتنتقمى من عصاة ربك ولمثل هذا اليوم خُلقتِ، فياتون بها تمشى على أربع قوائم تقاد بسبعين ألف زمام فى كل زمام سبعون الف حلقة لو جمع حديد الدنيا كله ما عدل منها حلقة واحدة على كل حلقة سبعون الف زبانى لو أمر زبانى منهم أن يدك الجبال لدكها وأن يهد الأرض لهدها وإذا لها شهيق ودوى وشرر ودخان تفور حتى تأتى إلى أهل الموقف ولها صلصلة وتصفيق وسحيق فيقال . ما هذا؟ فيقال : جهنم انفلتت من أيدى سائقيها ولم يقدروا على إمساكها لعظم شأنها فيجثو على الركب حتى المتوسلون ويتعلق إبراهيم وموسى وعيسى بالعرش هذا قد نسى الذبيح وهذا قد نسى هارون وهذا قد نسى مريم ويجعل كل واحد منهم يقول : يا رب نفسى لا أسألك اليوم غيرها وهو الأصح عندى ومحمد ﷺ يقول : أمتى أمتى سلمها ونجها يا رب وليس فى الموقف من تحمله ركبتاه وهو قوله تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ﴾ [الجاثية : ٤٥](١).

وعند تفلتها تكبو من الحنق والغيظ وهو قوله تعالى :﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان : ١٢] أى تعظيما وحنقا يقول سبحانه وتعالى :﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك : ٨](٢) أى تكاد تنشق نصفين من شدة غيظها فيبرز ﷺ ويأخذ بخطامها ويقول لها : ارجعى مدحورة إلى خلقك حتى تأتيك أفواجك فتقول : خلِ سبيلى فإنك يامحمد حرام فينادى مناد من سرادقات العرش : اسمعى منه وأطيعى له ثم

---

(١) وتمامها ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ آية ٢٨ .

(٢) وتمامها ﴿ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ آية (٨) .

تجذب وافعل عن شمال العرش ويتحدث أهل الموقف بجذبها فيخف وجلهم وهو تجه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

هنالك تنصب الميزان وهو كفتان وكفة من نور عن يمين العرش وكفة عن يساره من ظلمة ثم يكشف الجليل عن ساقه فيسجد الناس تعظيما له وتواضعا إلا الكفار فإن أصلابهم تعود حديدا فلا يقدرون على السجود وهو قوله تعالى: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

* وروى البخارى فى تفسيره مسندا إلى رسول الله ﷺ قال: «يكشف الله عن ساقه يوم القيامة فيسجد كل مؤمن ومؤمنة» وقد أشفقت من تأويل الحديث وعدلت عن منكريه وكذا أشفقت من ذكر صفة الميزان وزيفت قول واضعيه بالمثل وجعلته محيزا إلى العالم الملكوتى فإن الحسنات والسيئات أعراض ولا يصح وزن الأعراض إلا بالميزان الملكوتى فبينما الناس ساجدون إذ نادى الجليل بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان حكاه البخارى.

لايجاوزنى ظلم ظالم فإن جاوزنى فأنا الظالم ثم يحكم بين البهائم ويقتص للجماء من القرناء ويفصل بين الوحش والطير ثم يقول لهم كونوا ترابا فتسوى بهم الأرض ويتمنى الكافر فيقول ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠].

ثم يخرج النداءمن قبل الله: أين اللوح المحفوظ؟ فيرى به هوج عظيم فيقول الله: أين ما سطرت فيك من توراة وانجيل وفرقان؟ فيقول: سلبنى الروح الأمين، فيؤتى به يرعد وتصطك ركبتاه فيقول الله: يا جبريل هذا اللوح يزعم أنك نقلت منه كلامى ووحيى أصدق؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول له: فما فعلت فيه؟ فيقول: أنهيت التوراة إلى موسى والإنجيل إلى عيسى والفرقان إلى محمد ﷺ وأنهيت إلى كل رسول رسالته وإلى أهل الصحف صحائفهم فإذا بالنداء: يا نوح فيؤتى به يرعد وتصطك فرائصه فيقول له: يا نوح زعم جبريل أنك من المرسلين، قال: صدق فيقول له: ما فعلت مع قومك، قال: دعوتهم ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا فإذا بالنداء: يا قوم نوح فيؤتى بهم زمرة واحدة فيقال: هذا أخوكم نوح يزعم أنه بلغكم الرسالة فيقولون: يا ربنا كذب ما بلغنا شيئًا وينكرون الرسالة فيقول الله: يا نوح ألك بينة عليهم؟ فيقول: نعم يا رب بينتى عليهم محمد وأمته فيؤتى بالنبى فيقول الله عز وجل: يا محمد هذا نوح يستشهدك

فيشهد له بتبليغ الرسالة ويقرأ ﷺ «إنا أرسلنا نوحا إلى آخرها فيقول الجليل: قد وجب عليكم الحق وحقت عليكم كلمة العذاب فقد حقت على الكافرين فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار من غير وزن عمل ولا حساب، ثم ينادى أين عاد؟ فيفعل قوم هود مع هود كما فعل مع نوح فيشهد عليهم النبى وخيار أمته فيتلوا ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣] .

فيؤمر بهم إلى النار ثم ينادى: يا صالح ويا ثمود فيأتون فيستشهدون عندما ينكرون النبى ﷺ فيتلوا ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١] إلى آخر القصة فيفعل بهم مثلهم ولا يزال يخرج أمة بعد أمة قد أخبر عنهم القرآن بيانا وذكرهم فيه إشارة كقوله تعالى: ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨] .

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [المؤمنون: ٤٤](١) .

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ [إبراهيم: ٩](٢) .

وفى هذا تنبيه على أولئك القرون الطاغية كقوم بارخ ومارخ ودوحا واسرا أو ما أشبه ذلك حتى ينتهى النداء إلى أصحاب الرس وتبع وقوم إبراهيم وفى كل ذلك لا يروج أن يرتفع لهم ميزان ولا يوضع لهم حساب وهم قوم عن ربهم يومئذ محجوبون والترجمان يكملهم لأن من نظر إليه الله وكلمه لم يعذب، ثم ينادى بموسى فيأتى وهو كأنه ورقة فى ريح عاصف فيقول له: يا موسى إن جبريل زعم أنك بلغت الرسالة والتوراة فتشهد له بالبلاغ؟ قال: نعم، فيقول له: فارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك، فيرقى المنبر ويقرأ فينصت كل من فى الموقف فيأتى بالتوراة غضة طوبة على حسبها يوم أنزلت حتى يتوهم الأحبار أنهم ما عرفوها يوما، ثم ينادى: يا داود فيأتى وهو يرعد كأنه ورقة فى ريح عاصف ويقول جل ثناؤه: يا داود زعم جبريل أنه بلغك الزبور فتشهد له بالبلاغ؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول له: ارجع إلى منبرك واتل ما أوحى، فيرقى ويقرأ وهو أحسن صوتا وفى الصحيح أنه صاحب مزامير أهل الجنة فيسمع صوته إمام تابوت السكينة فيقتحم الجموع ويتخطى الصفوف حتى يصل إلى داود فيتعلق به فيقول أما وعظك

---

(١) وتمامها ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ : آية ٤٤ .

(٢) وتمامها ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ آية (٩) .

الزبور حتى نويت لى شرا فيخجله ويسكته مفحما فيرتجع الموقف لما يرى الناس من شأن داود عليه السلام ثم يتعلق به فيسوقه إلى الله فيرخى عليهم الستر فيقول: يا رب انصفنى منه فإنه تعمدنى بالهلاك وجعلنى أقاتل حتى قتلت وتزوج امرأتى وعنده يومئذ تسع وتسعون إمرأة غيرها فيلتفت الجليل إلى داود فيقول له اصدق فيما يقول؟ فيقول له نعم يا رب وهو منكس رأسه حياء وتوقعا لما ينزل به من العذاب ورجاء فيما وعده الله من المغفرة، فكان إذا خاف نكس رأسه وإذا طمع ورجا رفعه فيقول الله تعالى قد عوضتك عن ذلك كذا وكذا من القصور والولدان فيقول رضيت يا رب ثم يقول لداود اذهب قد غفرت لك وكذا شأنه سبحانه وتعالى مع من أكرمه يعطى عنه من سعة رفده وعظم عفوه ثم يقول له ارجع إلى منبرك واقرأ بما بقى من الزبور فيفعل حينئذ فيؤمر ببنى إسرائيل أن ينقسموا قسمين: قسم مع المؤمنين وقسم من المجرمين، ثم ينادى المنادى أين عيسى بن مريم فيؤتى به فيقول له أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله فيحمد ما شاء الله ويثنى عليه كثيرا ثم يعطف على نفسه بالذم والاحتقار ويقول سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

فيضحك الله تعالى ويقول: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩](١)، صدقت يا عيسى ارجع إلى منبرك واتل الإنجيل الذى بلغك جبريل فيقول نعم ثم يقرأ فتشخص إليه الرؤس من حسن ترديده وترجيحه فإنه أحكم الناس به رواية فيأتى به غضا طريا حتى يظن الرهبان أنهم ما علموا منه آية قط ثم ينقسم النصارى فرقتين: المجرمون مع المجرمين والمؤمنون مع المؤمنين ثم يخرج النداء أين محمد فيؤتى به ﷺ فيقول له يا محمد هذا جبريل يزعم أنه بلغك القرآن فيقول نعم يا رب فيقال له ارجع إلى منبرك واقرأ فيتلو ﷺ القرآن فيأتى به غضا طريا عليه حلاوة يستبشر بها المتقون وإذا وجوههم ضاحكة مستبشرة والمجرمون وجوههم مغبرة ويستدل على السؤال المتقدم للرسل وإمامهم بقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

* وقيل بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ

---

(١) وتمامها ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١٠٩]

والاول اصح حكيناه فى الاحياء، لان الرسل يتفاضلون والمسيح عليه السلام من اجلهم لانه روح الله وكلمته فإذا تلا النبى ﷺ القرآن توهمت الأمة أنهم ما سمعوه قط. وقد قالوا للاصمعى تزعم انك احفظهم لكتاب الله تعالى قال يا ابن أخى يوم اسمعه من النبى ﷺ كأنى ما سمعته قط فإذا فرغت من قراءة الكتب خرج النداء من قبل سرادقات الجلال﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس: ٥٩] فيربح الموقف ويقوم فيه روع عظيم والملائكة قد امتزجت بالجن والجن ببنى آدم، ولج الكل لجة واحدة ثم يخرج النداء: يا آدم ابعث من بنيك بعثا إلى النار فيقول كم يا رب فيقول له من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد إلى الجنة فلا يزال يستخرج من سائر الملحدين والغافلين والفاسقين حتى لا يتبقى إلا قدر حفنة الرب كما قال الصديق: نحو حفنة من حفنات الرب، ثم يقرب اللعين بالشياطين فمنهم من تزيع له الميزان فإذا سيئاته ترجح على حسناته وكل من وصلت له الشريعة لابد له من الميزان فإذا اعتزلوا وايقنوا أنهم هالكون قالو: آدم ظلمنا ومكن الزبانية من نواصينا فإذا النداء من قبل الله تعالى :﴿ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧] فيستخرج لهم كتاب عظيم يسد ما بين المشرق والمغرب فيه جميع اعمال الخلائق كل يوم تعرض على الله فيأمر الكرام البررة أن ينسخوها فى ذلك الكتاب العظيم وهو قوله تعالى :﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩]. ثم ينادى بهم فردا فردا فيحاسب كل واحد منهم فإذا الأقدام تشهد واليدان تشهد وهو قوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤] وقد جاء فى الخبر أن رجلا منهم يوقف بين يدى الله تعالى فيقول له يا عبد السوء كنت مجرما عاصيا فيقول ما فعلت فيقال له عليك بينة فيؤتى بحفظته فيقول كذبوا علىّ ويجادل على نفسه وهو قوله تعالى :﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١](١) ويختم على فيه وهو قوله تعالى :﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥] فتشهد جوارحهم عليه فيؤمر به إلى النار فيجعل يلوم جوارحه فتقول له ليس عند اختيارنا :﴿ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١](٢).

---

(١) وتمامها ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾: آية ١١١.

(٢) وتمامها ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ آية (٢١).

ثم يدفعون بعد الفراغ إلى خزنة جهنم فترتج أصواتهم بالبكاء والضجيج ويكون لهم رجة عظيمة حين يعرض الموحدون المؤمنون فتحدق بهم الملائكة تلقى كل واحد منهم يقول ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

والفزع الأكبر في أربعة مواضع: عند نقر الناقور، وعند تفلت جهنم من الخزنة، وعند إخراج بعث آدم، وعند دفعهم إلى الخزنة.

فإذا بقي الموقف ليس فيه إلا المؤمنون والمسلمون المحسنون والعارفون والصديقون والشهداء والصالحون والمرسلون، ليس فهم مرتاب ولا منافق ولا زنديق، فيقول الله تعالى يا أهل الموقف من ربكم فيقولون الله فيقول لهم تعرفونه فيقولون نعم فيتجلى لهم ملك عن يسار العرش جلعت البحار السبعة في نقرة إبهامه ما ظهرت فيقول لهم أنا ربكم بأمر الله فيقولون نعوذ بالله منك فيتجلى لهم ملك عن يمين العرش لو جعلت البحار الأربعة عشر في نقرة إبهامه ما ظهرت فيقول لهم أنا ربكم بأمر الله فيقولون نعوذ بالله منك فيتجلى لهم ملك عن يمين العرش لو جعلت البحار الأربعة عشر في نقرة إبهامه ما ظهرت فيقول أنا ربكم فيتعوذون بالله منه ثم يتجلى لهم الله تعالى في الصورة التي كانوا يعرفونها وسمعوه وهو يضحك فيسجدون له جميعهم فيقول أهلا بكم ثم ينطلق بهم سبحانه إلى الجنة فيتبعونه فيمر بهم على الصراط والناس أفواج أعني المرسلين ثم النبيين ثم الصديقين ثم المحسنين ثم الشهداء ثم العارفين ويبقى المسلمون، منهم المكبوب على وجهه ومنهم المحبوس في الأعراف، ومنهم قوم قصروا في تمام الإيمان منهم من يجوز الصراط على مائة عام وآخر يجوز على الف عام ومع ذلك كله لم تحرق النار كل من رأى ربه عيانا، لا يضام في رؤيته.

وأما المسلم والمحسن والمؤمن فقد كشفنا عن مقام كل واحد منهم في كتابنا المسمى بالاستدراج وهم في زمرة الانطلاق وقد كثر مرورهم وترددهم بالجوع والعطش، قد تفتتت أكبادهم، لهم نفس كالدخان يشربون من الحوض بعدد نجوم السماء وماؤه من نهر الكوثر، وقدره من إيلياء إلى صنعاء طولا وعرضه من عدن إلى يثرب، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: منبري على حوضي أي على أحد حافتيه في المكيال والمقدار والمذادون عنه هم المشتغلون في حبس الصراط بمساوي قبائح ذنوبهم، فكم من متوضئ لا يحسن أن يسبغ وضوءه وكم من مصل لم يسأل عن صلاته اتخذ صلاته حكاية قد عربت من

الخضوع والخشوع لو قرصته نملة لالتفت والعارفون بحلال الله أو قطعت أيديهم وأرجلهم ما ارتجوا لذلك، شغلتهم الهيبة والفكرة لعملهم بقدر من قاموا بين يديه فربما رجل لسعته العقرب فى مجلس أمير من الأمراء لم يتحرك صبرا عليها وتعظيما للأمير فى المجلس، فهذه حالة الآدميين مع مخلوق لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فكيف حال من يكون قائما بين يدى الله عز وجل وهيبته وسلطانه وعظمته وجبروته. وحكى الظالم العارف أنه يؤتى به إلى الله تعالى فتحرج عليه المظالم ويتعلق به المظلوم فيقول له التفت أيها المظلوم فوق رأسك فإذا بقصر عظيم تحار فيه الأبصار فيقول ما هذا يا رب فيقول إنه للبيع فاشتره منى فيقول ليس معى ثمنه فيقول إن ثمن هذا أن تبرئ مظلمة أخيك فالقصر لك فيقول قد فعلت يا رب هكذا يفعل الله بالظالمين الأوابين وهو قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ [الإسراء: ٢٥].

والأواب الذى أقلع عن الذنب فلم يعد أبدا، وقد سمى داود عليه السلام أوابا وغيره من المرسلين.

* * *

كيفية دعاء أهل الموقف
وذكر الاختلاف فيما جاء فى تفسيره

فى كيفية دعاء أهل الموقف وذكر الاختلاف فيما جاء فى تفسير.

وفى الصحيح أن أول ما يقضى الله تعالى فى الدعاء وأول ما يعطى الله أجورهم الذين ذهبت أبصارهم، نعم ينادى يوم القيامة بالمكفوفين فيقال لهم أنتم أحرى أى أحق من يُنظر إليه ثم يستحى الله منهم فيقول لهم اذهبوا إلى ذات اليمين ويعقد لهم رايه وتجعل فى يد شعيب عليه السلام فيصير أمامهم ومعهم من ملائكة النور ما لا يحصى عددهم إلا الله يزفونهم كما تزف العروس فيمر بهم على الصراط كالبرق الخاطف، وصفة أحدهم فى الصبر والحلم كابن عباس ومن ضاهاه من هذه الأمة، ثم ينادى أين أهل البلاء ويريد المجذومين فيؤتى بهم فيحييهم الله تحية طيبة بالغة فيؤمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية خضراء وتجعل بيد أيوب عليه السلام فيصير أمامهم إلى ذات اليمين وصفة المبتلى صبر وحلم كعقيل بن أبى طالب ومن ضاهاه من هذه الأمة، أين الشباب المتعففون فيؤتى بهم إلى الله فيترحب بهم ويقول ما شاء الله أن يقول ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية خضراء ثم تجعل فى يد يوسف عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين وصفة الشباب صبر وحلم كراشد بن سليمان ومن ضاهاه من هذه الأمة، ثم يخرج النداء أين المتحابون فى الله فيترحب بهم ويقول ما شاء الله ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين وصفة المتحابين فى الله صبر وحلم لا يسخط ولا يسئ من نوادر الأحوال الدنيوية كأبى تراب أعنى على بن أبى طالب رضى الله عنه ومن ضاهاه من هذه الأمة، ثم يخرج النداء أين الباكون من خشية الله فيؤتى بهم إلى الله فتوزن دموعهم ودماء الشهداء ومداد العلماء فيرجح الدمع فيؤمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية ملونة لأنهم بكوا فى أنواع مختلفة هذا بكى خوفا وهذا بكى طمعا وهذا بكى ندما وتجعل بيد نوح عليه السلام فتهم العلماء بالتقدم عليهم ويقولون علمنا أبكاهم فإذا النداء على رسلك يا نوح فتوقف الزمرة ثم يوزن مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح دم الشهداء على مداد العلماء فيؤمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية مزعفرة وتجعل فى يد يحيى ثم ينطلق أمامهم فيهم العلماء بالتقدم ويقولون عن علمنا قاتلوا فنحن أحق منهم بالتقدم

فيضحك الله عز وجل ويقول هم عندى كأنبيائى اشفعوا فيمن تشاءون فيشفع العالم فى أهل بيته وجيرانه وإخوانه ويأمر كل واحد منهم ملكا ينادى فى الناس ألا إن فلانا العالم قد أمره الله أن يشفع فيمن قضى له حاجة أو أطعمه لقمة أو أسقاه شربة ماء حين عطش فيقوم إليه من فعل معه شيئا من ذلك فيشفع له.

وفى الصحيح أن أول ما يشفع المرسلون ثم النبيون ثم العلماء ويعقد لهم راية بيضاء تجعل فى يد إبراهيم عليه السلام فإنه أشد المرسلين مكاشفة ونضرب عن هذا الفن.

ثم ينادى مناد أين الفقراء فيؤتى بهم إلى الله تعالى فيقول لهم مرحبا بمن كانت الدنيا سجنهم ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين وتعقد لهم راية صفراء، وتجعل فى يد عيسى عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين.

ثم ينادى أين الأغنياء فيؤتى بهم إلى الله تعالى فيعدد لهم ما خولهم خمسمائة عام ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين وتعقد لهم راية ملونة وتجعل بيد سليمان عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين.

وفى الحديث أن أربعة يستشهد عليهم بأربعة ينادى بالأغنياء وأهل الغبطة فيقال لهم ما شغلكم عن عبادة الله فيقولون أعطانا ملكا وغبطة شغلتنا عن القيام بحقه فيقال من أعظم ملكا أنتم أم سليمان فيقولون سليمان فيقول ما شغله ذلك عن القيام بحقى ثم يقال أين أهل البلاء فيؤتى بهم فيقولون لهم أى شئ شغلكم عن عبادة الله فيقولون ابتلانا الله فى الدنيا فشغلنا عن ذكره والقيام بحقه فيقال لهم من أشد بلاء أنتم أم أيوب فيقال لهم ما شغله ذلك عن القيام بحق الله ثم ينادى أين الشباب والمماليك فيؤتى بهم فيقال لهم ما شغلكم عن عبادة الله فيقولون أعطانا جمالاً وحسنا فتنا به فكنا مشغولين عن القيام بحقه وتقول المماليك شغلنا رق العبودية فيقال لهم أنتم أكثر جمالاً أم يوسف فيقولون يوسف فيقال لهم ما شغله ذلك وهو فى الرق عن القيام بحق الله ثم ينادى أين الفقراء فيؤتى بهم فيقال لهم ما شغلكم عن القيام لله فيقولون ابتلانا فى الدنيا بالفقر شغلنا عن القيام بحق الله فيقال لهم من أشد فقراً عيسى أم أنتم فيقال ما شغله عن ذكرنا، فمن ابتلى بشئ من هذه الأربع فليذكر صاحبة وقد كان ﷺ يقول فى دعائه اللهم إنى أعوذ بك من فتنة الغنى والفقر فاعتبروا بالمسيح فقد صح أنه ما كان يملك شيئاً قط وقد لبس جبة صوف عشرين سنة وما كان له فى سباحته إلا كوز وسبحة

ومشط، فرأى يوما رجلاً يشرب بيده فرمى الكوز ولم يمسكه بعد ورأى رجلاً آخر يخلل لحيته بيده فرمى المشط من يده ولم يمسكه بعد، وكان يقول عليه السلام دابتى رجلاى وبيوتى كهوف الأرض وطعامى نباتها وشرابى أنهارها وفى بعض الصحف المنزلة يا ابن آدم(١) حسنة وسيئة من أنواع الحياة والقتل متعمداً والخطأ ايضاً إذا اشتهين بكفارته ولم يقتص فاحذرهما فإنهما فعل عظيم والكبائر قد يرجى لصاحبها الشفاعة بعد التخليص فأكرمهم يخرج من النار بعد ألف سنة وقد امتحن وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى يقول فى كلامه يا ليتنى ذلك الرجل لا شك أنه كان رحمه الله تعالى عالما بأحكام الآخرة ويؤتى يوم القيامة برجل فلم يجد حسنة يرجح بها ميزانه وقد اعتدلت بالسوية فيقول الله تعالى له رحمة منه اذهب فى الناس من يعطيك حسنة ادخلك بها الجنة فيسير يجوس خلال الناس فما يجد أحد يكلمه فى ذلك ولك من كلمه وساله يقول أخشى ان يخف ميزانى أنا أحوج إليها منك فييأس فيقول له رجل ما الذى تطلب فيقول له حسنة واحدة فلقد مررت بقوم لهم منها الوف فبخلوا علىَّ فيقول له الرجل لقد لقيت الله تعالى فما وجدت فى صحيفتى إلا حسنة واحدة وما اظن أنها تغنى يعنى سيأخذها هبة منى إليك فينطلق بها فرحًا مسروراً فيقول الله له كيف جاء لك وهو سبحانه اعلم فيقول ما كان منه مع الرجل فيدعى بالرجل الذى أعطاه الحسنة فيقول الله تعالى كرمى أوسع من كرمك خذ بيد أخيك وانطلق به إلى الجنة.

وإذا استوت كفتا الميزان لرجل فيقول الله لا هو من أهل الجنة ولا هو من أهل النار فيأتى الملك بصحيفة يضعها فى كفة السيئات فيها مكتوب اف فترجح على الحسنة لأنها كلمة عقوق فيؤمر به إلى النار فيلتفت الرجل ويطلب ان يرده الله إليه فيقول إلهى إنى رأيت أنى سائر إلى النار لابد لى منها وكنت عاقا لابى فضعف علىَّ عذاب أبى وانقذه منها قال فيضحك الله ويقول عققته فى الدنيا وبررته فى الآخرة خذ بيد ابيك وانطلق به إلى الجنة فما من أحد يذهب به إلى النار والملائكة توقفه لعلمهم بسر احكام الآخرة حتى لقد ينادى بقوم لا خلاق لهم خلقوا حطبا لها وحشوا فيقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. فتحبس تلك الزمرة حتى يخرج النداء فيهم ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، فيستسلمون ويعترفون بالذنب كما قال تعالى:

(١) قوله يا ابن آدم حسنة إلخ، لعل أصل العبارة يا ابن آدم أنت مجزئ بعملك حسنة وسيئة فى مدة الحياة كالقتل متعمداً إلخ. اهـ مصححة.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، فيدفعون دفعة واحدة إلى النار وكذا يؤتى باهل الكبائر من الامة شيوخا وعجائز ونساء وشبانا فإذا نظر إليهم مالك خازن جهنم قال أنتم معاشر الاشقياء مالى ارى ايديكم لا تغسل ولم تسود وجوهكم، ما ورد على أحسن حالاً منكم، فيقولون لهم ابكوا فلن ينفعكم البكاء فكم من شيخ وضع يده على لحيته يقول واشيبتاه واطول حزناه وكم من كهل ينادى واشباباه وكم من امرأة قد قبضت على شعرها وهى تنادى واسوأتاه وافضيحتاه فإذا النداء من قبل الله تعالى يا مالك ادخلهم النار من الباب الأول فإذا همت النار ان تاخذهم يقولون باجمعهم لا إله إلا الله فتنفر النار منهم مسيرة خمسمائة عام فياخذون فى البكاء وإذا النداء يا نار خذيهم يا ملك ادخلهم الباب الأول فعند ذلك يسمع صلصلة كصلصلة الرعد فإذا النار همت ان تحرق القلوب زجرها مالك وجعل يقول لا تحرقى قلبا فيه القرآن وكان دعاء للإيمان ولا تحرقى جباها سجدت للرحمن فيعودون فيها وإذا برجل يعلو صوته على صوت أهل النار فيخرج وقد امتحش فيقول الله له مالك اكثر أهل النار صياحاً فيقول يارب حاسبتنى ولم اقنط من رحمتك وعلمت انك تسمعنى فاكثرت الصياح فيقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، اذهب فقد غفرت لك وكذا يخرج من النار فيقول الله له خرجت من النار فبأى عمل تدخل الجنة فيقول يارب ما أسالك منها إلا يسيراً فترفع له شجرة منها فيقول الله أرأيت إن اعطيتك هذه الشجرة تسالنى غيرها فيقول لا وعزتك يارب فيقول الله له هى هبة منى إليك فإذا أكل منها واستظل بظلها رفعت له شجرة أخرى أحسن منها فيجعل يكثر النظر إليها فيقول الله تعالى لعلك احببتها فيقول نعم يارب فقول له انا أعطيتك إياها هل تسالنى غيرها فيقول لا يارب فإذا أكل منها واستظل بظلها رفعت له شجرة أحسن منها فيجعل النظر إليها فيقول الله له أنا اعطيتك إياها هل تسالنى غيرها فيقول لا وعزتك يارب ولا اسالك غيرها فيضحك الله عز وجل فيدخله الجنة.

ومن غريب حكم الآخرة:

ان الرجل يؤتى به إلى الله فيحاسبه ويوبخه وتوزن له حسناته وسيئاته وهو فى ذلك كله يظن يقينا أن الله ما اشتغل إلا بحسابه ووزنه، ولعل فى تلك اللحظة حاسب فيها

آلاف الألوف ما لا يحصى عدتهم إلا الله، كل منهم يظن أن الحساب له وحده وكذا لا يرى بعضهم بعضاً، ولا يسمع أحدهم كلام الآخر بل كل واحد تحت أستاره فسبحان من هذا شأنه وهو قوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨][(١)]، وفي قوله سر عجيب من أسرار الملكوت إذ ليس لملكه حد محدود فسبحان ما لا يشغله شأن عن شأن وفي هذه الحالة يأتي الرجل إلى ولده فيقول له يا بني إني كسوتك حيث لا تقدر تكسو نفسك وأطعمتك طعاما وسقيتك شراباً حيث كنت عاجزاً عن ذلك وكفلتك صغيراً حيث كنت لا تستطيع دفع الضراء ولا جلب السراء فكم من فاكهة تمنيتها لك فابتعتها لك حسبك ما ترى من هول يوم القيامة وسيئات أبيك كثيرة فتحمل عني منها ولو سيئة فيخف عني واعطني ولو حسنة أزيدها في الميزان فيفر منه الولد ويقول له أنا أحوج منك إليها وكذا يفعل الفصيل مع الفصيلة والصاحب والأخ وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٦]، ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ [المعارج:١٣]. وفي الحديث «يحشر الناس عراة قالت عائشة رضي الله عنها واسوأتاه ينظر بعضهم إلى بعض فقال النبي ﷺ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، إن شدة الهول وعظم الكرب تشغلهم أن ينظر بعضهم إلى بعض»[(٢)].

فإذا استقر الناس في صعيد واحد طلعت عليهم سحاب سوداء فأمطرتهم صحفا منشرة فإذا صحيفة المؤمن ورقة ورد وإذا صحيفة الكافر ورقة سدر والكل مكتوب فتتطاير الصحف فإذا هي بالميامن والمياسر وليس عن اختيار وإنما هي تقع بيمينه وبشماله وهو قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣].

وحكى بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد جواز الصراط وهو غلط من قائله فإنه لعين يرد من قد جاز الصراط ففي السبعة جسور يهلك الناس، والسبعون ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يرفع لهم ميزان ولا يأخذون صحفا وإنما هي براءة مكتوب فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله هذه براءة فلان بن فلان بدخول الجنة ونجاته من النار فإذا غفرت له ذنوبه أخذ الملك بعضده وجاس به خلال الموقف ونادى هذا فلان بن فلانة قد غفر الله له ذنوبه وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، فما مر عليه شئ أسر من

---

(١) وتمامها «إن الله سميع بصير».

(٢) أخرجه الإمام مسلم. كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة جـ ٤

ذلك المقام.

والرسل يوم القيامة على المنابر والأنبياء والعلماء على منابر صغار دونهم ومنبر كل رسول على قدره والعلماء العاملون على كراسى من نور والشهداء والصالحون كقراء القرآن والمؤذنون على كثبان المسك وهذه الطائفة العاملة أصحاب الكراسى هم الذين يطلبون الشفاعة من آدم عليه السلام ونوح حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ.

وقد جاء أن القرآن يأتى يوم القيامة فى صورة رجل حسن الوجه والخلق فيشفع، ويشفع الإسلام مثله فيخصم ويخاصم عن صاحبه وقد ذكرنا حكاية الإسلام مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى كتاب الاحياء بعد مخاصمته فيتعلق به من شاء الله فيهوى بهم إلى الجنة وكذلك تاتى الدنيا فى صورة عجوز شمطاء أقبح ما يكون فيقال للناس اتعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من هذه فيقال لهم هذه الدنيا التى كنتم تتحاسدون عليها وتتباغضون فيها، وكذلك يوتى بالجمعة فى صورة عروس تزف فيحدق بها المؤمنون ويحوط بهم كثبان المسك والكافور عليهم نور يتعجب منه كل من رآه فى الموقف فلم تزل بهم حتى تدخلهم الجنة.

فانظر إلى رحمة الله تعالى وجود القرآن والإسلام والجمعة وكيف هم أشخاص القرآن موجود جبروتى والإسلام ملكوتى كالصيام والصلاة والصبر ولا يلتفت إلى من احتج فى تلاشى الأنفس عند الموت بقوله يوم الخندق:

اللهم رب الأجسام البالية والأرواح الفانية فإن ذلك كان يحوج إلى العلوم وقد نبهنا عله فى غير هذا الكتاب وقصدنا الاختصار لسلوك طريق السنة ولا يلتفت إلى البدع الطارئة على الشريعة من شياطين الإنس فبشر المؤمنين بالرشاد وسلوك المراد، نسأل الله العصمة والتوفيق بمنه وكرمه آمنين. وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

تم بحمد الله تعالى

كتاب الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة

حجة الإسلام أبى حامد الغزالى

فهرس الكتاب

رقـم الايـداع : ١١٨٥٠ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي : I.S.B.N
977-5437-89-X